مجلة بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية

العدد التاسع والسبعون   فبراير ٢٠٠٩

مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الإنسانية

http : // Art.menofia . edu. eg *** E. mail : arts @ mailer . menofia . edu. eg

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

مع اعتماد اللائحة الجديدة للنشر العلمى بكلية الآداب فى أوائل الالفية الثالثة حسب التقويم الميلادى للحضارة البشرية .

تقدم كلية الآداب جامعة المنوفية شكلاً جديداً من النشر العلمى كسلسلة إصدارات خاصة تخضع فى شروط تحكيمها ونشرها للقواعد العلمية المتبعة فى مجلة بحوث كلية الآداب .

وتهدف السلسلة إلى إثراء المكتبة العربية بالبحوث العلمية الجادة التى قد لا تستوعبها صفحات المجلة الدورية ، والتى ترى هيئة التحرير أن لها قيمتها العلمية .

ويسر هيئة تحرير المجلة أن تتلقى الأنتاج العلمى للزملاء العاملين بحقل العلوم الإنسانية والآداب واللغات العالمية حتى تقدمها للعلماء والمختصين والمهتمين من خلال هذه النافذة الجديدة .

" والله ولى التوفيق "

هيئة التحرير

أصول البحوث والمواد التى تصل للمجلة

لا ترد ولا تسترجع سواءً

نشرت أم لم تنشر

جميع الآراء الواردة فى هذه المجلة

تعبر عن رأى كاتبيها ولا تعبر

بالضرورة عن رأى المجلة

هيئة تحرير مجلة بحوث
كلية الآداب - جامعة المنوفية

مجلـــس التحريـــر

رئيس التحريـــر أ.د / أحمد عبد القادر الشاذلي عميـد الكليـــة

نائب رئيس التحريـــر أ.د / حسناء محمود محجوب وكيل الكلية للدراسات العليا

مديـر التحرير أ.د / عبد الفتاح مصطفى غنيمة أستاذ متفرغ بقسم الفلسفة

المحرر التنفيذى د / محمد السيد عزوز الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

المحرر التنفيذى د / أحمد على محمد تاج الأستـــاذ المساعـد بقسـم المكتبات

سكرتير التحرير أ / مها أحمـد البكـرى

مجلـــة علميـــة محكمـــة تعنـــى بالدراســـات الإنسانيـــة

الهيئـــة الاستشاريـــة :

أ.د / أحمد رأفت عبد الجواد

أ.د / محمد فوزى عبد السلام ضيف

أ.د / فتحى محمد مصيلحى

أ.د / عيد على مهدى بلبع

أ.د / صلاح عبد الجابر عيسى

أ.د / محمد شبل الكومى

أ.د / حلمى أحمد عبد العال شلبى

أ.د / عدلى محمد رضا

أ.د / زينب محمد عفيفى شاكر

أ.د / محمد أبو حطب خالد

أ.د / عبد المنعم شحاته محمود

جـــميع المراســلات توجـــه باسم الأســـتــاذ / سكرتيـــر التـــحـــرير

العنوان : كليـــة الآداب - جـــامــعـــة المنوفـــيـــة - شـــبين الكوم

http : // Art.menofia . edu. eg *** E. mail : arts @ mailer . menofia . edu. eg

مجلة
بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية

سلسلة إصدارات خاصة

(٧٩)

التوظيف الفنى للعدول فى النص القرآنى

"دراسة أسلوبية بلاغية"

إعـــداد

د/ عبد الحميد هنداوى

أستاذ البلاغة والنقد الأدبى والأدب المقارن

كلية دار العلوم – جامعة الفيوم

محكمة تصدرها كلية آداب المنوفية

العدد التاسع والسبعون | فبراير ٢٠٠٩

*web site: http // : www.menofia. edu. eg *** http : // Art.menofia . edu. eg*

التوظيف الفني للعدول في النص القرآني

دراسة أسلوبية بلاغية

أ.د/عبد الحميد هنداوي* (1)

تمهيد :

مما لا شك فيه أن هذا القرآن الخالد المعجز لن تفنى عجائبه ،ولن تنقضي كنوزه وذخائره إلى يوم القيامة ،وإن من أسباب عظمة هذا الكتاب و ثرائه بالدلالات والمعاني اتساعه لجميع العلوم و الفنون وتحاوره معها ؛ فكل ما يصدق عليه أنه علم ، أو فن يحتكم إلى ذوق سليم ؛ فإن القرآن لا يأباه ، بل يتعاطاه ويتجاوب معه تمام المجاوبة.

ورغم كثرة ما نشر من البحوث والدراسات حول أسلوب القرآن الكريم وبلاغته وإعجازه ؛فإننا لا نزال بحاجة إلى الإفادة من إجراءات الأسلوبية الحديثة في تحليل النص القرآني ،والوقوف على السمات الأسلوبية التي تميزه ، والتي تعدُّ سرَّ خلوده وإعجازه.

ويعدُّ العدول في النص القرآني واحدا من أهم السمات الأسلوبية التي يتميز بها أسلوب هذا الكتاب الكريم ، وقد عُرِّفَت الأسلوبية – في أحد تعريفاتها – بالعدول.

فإذا عرفنا أن الأسلوب له محاور ثلاثة هي المرسل والمستقبل والرسالة[2].

فثمة طائفة نظروا إلى الأسلوب من جهة المرسل باعتبار ما بينهما من تلاحم تام، حيث تم "إدماج المولف صاحب الاختيار في تعريف الأسلوب على أنه اختيار"[3].

حتى إن أصحاب هذا الاتجاه قد طابقوا بين الأسلوب وصاحبه فقالوا: "الأسلوب هو الرجل"[4].

فالأسلوب على ذلك ما هو إلا سمات تعبيرية مميزة لصاحبه، فالمبدع يختار ويؤثر من الوسائل التعبيرية التي يختارها من بين أنماط اللغة العديدة ما يصير علما دالا عليه، وبصمة خاصة أو صوتا ينفرد به لا يختلط بغيره من الأصوات ؛ بحيث يصير سمة مميزة له يتميز بها أسلوبه عن النمط العادي للكلام.

وذلك أن ثمة مستويين متمايزين أساسيين للكلام عرفهما البلاغيون قديما وحديثا.

وقد تعددت عبارات هؤلاء الأسلوبيين ومصطلحاتهم في التعبير عن هذين المستويين من اللغة.

فمن المصطلحات التي عبروا بها عن الأصل أو المستوى النمطي : (الأصل – النمط – العبارة البريئة – الخطاب الساذج – الاستعمال الدارج – الكلام الفردى – الاستعمال المألوف – الوضع الحيادى – الاستعمال العادي – الدرجة الصفر – الاستعمال النمط – التعبير الشائع. . .إلخ [5]

ومن المصطلحات المعبر بها عن المستوى الفني:(الانزياح – الانتهاك – التجاوز – الانحراف – اللحن – الاختلال. . .إلخ [٦]

هذه المصطلحات العديدة المتقاربة في معانيها تعبر عن معنيين أساسيين هما النمطية أو الثبات في المستوى النمطي، والعدول أو المخالفة في المستوى الفني ،ومن ثم فالاختيار –على هذا الرأي – هو نوع من العدول؛ لأنه عدول عن المستوى النمطي إلى المستوى الفني ، والعلاقة بين المستويين هي أقرب شيء للعلاقة بين اللغة والكلام فإذا كانت اللغة هي النظام الثابت". . . الماثل في أذهان الجماعة اللغوية، فالأسلوب المنتمى إلى الكلام هو بطبيعة الحال – هو بحسب هذا الرأي – عدوان مستمر على ذلك النظام وانتهاك مطرد لسننه وأعرافه"[٧].

وإذا كان النظر إلى الأسلوب من زاوية المنشئ قد أثمر مقولة الاختيار، فإن النظر إليه من زاوية النص أو الرسالة قد أثمر مقولة العدول أو ما أسموه بمصطلحات عديدة لعل أبرزها، مصطلح الانحراف؛ إذ يعتمد تعريف الأسلوب بالنظر إلى النص على أنه نوع من الخطاب الأدبي المغاير للخطاب العادي.. وقد يكسر القواعد اللغوية الموضوعة أو يخرج عن النمط المألوف للغة، أو يبتكر صيغا وأساليب جديدة، أو يستبدل تعبيرات جديدة ليست شائعة بأخرى قديمة، أو يقيم نوعا من الترابط بين لفظين أو أكثر، أو يستخدم لفظا في غير ما وضع له. هذا الخروج على الاستعمال العادي للغةيطلق عليه الأسلوبيون وعلماء اللسانيات عدة مصطلحات لعل أبرزها الانحراف [٨] ومن ثم فقد وصف هذا الاتجاه الأسلوب بأنه انحراف عن قاعدة ما [٩] أو " بأنه انحراف عن المعيار الموجود أو بأنه: "خروج عن القاعدة اللغوية" أو بأنه "شكل منحرف عن المعيار" [١٠] أو هو" انحراف DEVIATION عن نموذج من الكلام ينتمى إليه سياقيا"[١١] كما يعرف الأسلوب أيضا بأنه لحن مبرر" [١٢] ويعرف (ماروزو) الأسلوب "بأنه اختيار الكاتب لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها وينقلها من درجتها الصفر إلى خطاب يتميز بنفسه.

ونلاحظ هنا أن (ماروزو) يجمع في تعريفه للأسلوب بين كل من الاختيار والعدول أو الخروج بما يوحى للقارئ بالخلط بينهما على أننا نرى أن المقصود من تعريف ماروزو هو تعريف الأسلوب بأنه خروج أو عدول، غير أنه يرى أن هذا العدول أو الخروج يتميز بسمة الاختيار الفني الذي تحكمه الأغراض البلاغية والفنية وليس لمجرد الخروج أو الانحراف أو أنه خروج مختار، أو لحن مبرر" كما قال تودروف ومن ثم فالعدول أو الانحراف عنده هو الاختيار بعينه؛ فالاختيار والعدول كلاهما خروج عن النمط العادي أو المألوف إلى النمط الفني أو المتميز من الكلام؛ ومن ثم يبدو أنهما بناء على ذلك شيء واحد أو وجهان

لعملة واحدة باختلاف الزاوية التي ينظر إلى الأسلوب من خلالها ، إلا أن حقيقتها جميعاً واحدة وهي الخروج عن النمط العادي من الكلام.

فالاختيار في حقيقته إنما هو عدول عن المستوى النمطي أو العادي من اللغة إلى المستوى الفني من الكلام وقد يمثل تخير اللفظ نوعا من العدول عن النظام اللغوي أو عن الاستخدام الشائع، أو عدولا داخليا وهو ما يسميه ريفاتير بالعدول السياقى، وذلك فيما سوف نبينه قريبا عنه.

وفي الحقيقة أن النظرة إلى العدول على أنه عدول عن المستوى النمطي إلى المستوى الفني نظرة لا تكاد تفرق بينه وبين الاختيار ،أما العدول الجدير بإفراده بمصطلح خاص يميزه عن الاختيار وإن كان يشترك مع الاختيار في كونه انتقاء للفظ وإيثاراً له على غيره ،هذا العدول هو ما كان يمثل في رأيي نوعا من العدول عن النظام أو الأصل اللغوي أو نوعا من العدول عن سياق النص ،وهو ما عرف في التراث اللغوي والبلاغي بالمجاز [١٣].والنقل، والانتقال، والتحريف، والانحراف، والرجوع، والالتفات، والعدول، والصرف، والانصراف، والتلوُّن، ومخالفة مقتضى الظاهر، وشجاعة العربية، والحمل على المعنى، والترك، ونقض العادة، وغير ذلك [١٤].

هذا العدول قد عبر عنه في الدراسات الحديثة بمصطلحات عديدة كذلك، منها : الانحراف، والانزياح، والاختلال، والانتهاك، والتجاوز، والمخالفة، واللحن، وخرق السنن والشناعة، والإطاحة، والتحريف .. الخ [١٥]

ولكننا — رغم انتهائنا إلى اتفاق كلٍّ من الاختيار والعدول في الأساس الذي يرجعان إليه — وهو الخروج عن النمط المألوف - نرى أن ثمة فروقا بين كل من الاختيار والعدول، فالاختيار" محدود بالإمكانيات المتعارفة للغة والتي تصنف عند النحويين تحت أسماء (المطرد) والغالب والكثير في حين أن الانحراف (العدول)يبتعد عن طرق التعبير الشائعة وربما اقترب من القليل وحتى (الشاذ) ونلاحظ أن الاختيار يوجد في اللغة الجارية أو لغة الحديث وإن لم يكن سمة مميزة لها كما هو في اللغة الفنية في حين أن الانحراف يخص اللغة الفنية وهذا منطقي، إذ إن الخروج على الطرق المتعارفة في التعبير معيب اجتماعيا ولكنه مقبول إذا كان له غرض فني ؛ ولذلك لا يقدم عليه إلا أديب متمكن كما كان القدماء يقولون: (إن العربي الفصيح إذا قوي طبعه لم يبال أن يقع الشذوذ في شيء من كلامه) [١٦]

وفرق ثالث بين الاختيار والانحراف وهو أن الاختيار مرتبط بالقائل أو المبدع وقلما يشعر به المتلقي إلا أنه يرتاح له فإذا أراد أن يعيد الكلام أو يأتي بمثله لم تسعفه قريحته

؛ولهذا سمى الكلام الذي غلبت عليه خاصية الاختيار(السهل الممتنع) ولكن المتلقي يشعر به شعورا قويا في جميع الأحوال.

ولذلك يميل بعض علماء الأسلوب إلى اعتبار الانحراف حيلة مقصودة لجذب انتباه القارئ .. وعندنا أن هذا جانب واحد للانحراف ،وأن الجانب الآخر والأهم هو لزوم الانحراف لتحقيق الأثر الكلى للنص؛ فيمكن أن يعتبر الاختيار والانحراف من هذا المنظور كجناحي طائر.

وإذا سلمنا بهذه الفروق، فإن ثمة فارقا آخر على قدر كبير من الأهمية بل لعله يعد – في رأيي – هو الفارق الأساس بين كل من الاختيار والعدول؛ وذلك أن الاختيار قد اتفقوا على كونه خروجا عن النمط المألوف أو العادي من الكلام، أما العدول فقد اختلف الأسلوبيون حول النمط أو المعيار أو القاعدة التي يحدث العدول عنها على عدة أقوال:

١- فالقاعدة أحيانا هي نظام اللغة أي جملة قواعد اللغة التي تتم بها الكتابة ؛حيث تصطدم ظواهر الاستعمال اللغوي في الكلام بمستوى اللغة الثابت ويصبح الأسلوب حينئذ هو العدوان على نظام اللغة.[١٧]

٢- والقاعدة أحيانا هي قاعدة الاستخدام اللغوي ،وهي القاعدة التي تلاحظ عادة بهذا المفهوم ،فيكون على التحليل الأسلوبي أن يأخذ في اعتباره هذه الانحرافات التي يجريها مؤلف معيَّن على التصوُّرات النحوية والبلاغية السائدة في عصره ..".

٣- على العكس من هذه التصورات فقد تم وضع معيار على المستوى الكلامي، إنه إمكانية في التعبير أو في الأداء، (إن المستوى المذكور ليس غير الكلام أو الأداء)[١٨].

٤- وقد يحدد المعيار – بناء على الاستعمال الشائع – من خلال الوسائل الإحصائية فقط، فالمعيار في هذه الحالة إنما هو المتوسط الإحصائي لكل الوسائل لمجموع النصوص الموجودة، والأسلوب حينئذ انحراف بعض الوسائل اللغوية في النص مجال البحث عن المتوسط الإحصائي.[١٩]

٥- ويمكن تحديد القاعدة في نهاية الأمر على أنها (نموذج مثالي لغوي حاضر أمام الجماعة اللغوية وهو نموذج تنحو إلى تطبيقه دون أن تظفر بذلك نهائيا في الواقع اللغوي)[٢٠] – هذا النموذج المثالي هو ما "أطلق عليه تشومسكي (صاحب نظرية النحو التحويلي): [القدرة] أو [الكفاءة اللغوية] ،فعلى أساس هذا النموذج كما يقرر أتباع هذه النظرية يستطيع أبناء اللغة أن يميزوا على مستوى السطح بين ثلاثة أنماط من التراكيب: تراكيب صحيحة تؤدى المعنى، وأخرى فاسدة لخلوها منه ،وثالثة لا تنتمى إلى أيِّهما ؛إذ هي من جهة لا تتسم بالفساد لأنها تؤدى معنى يمكن

تفسيره أو شرحه على نحو ما ،وهي من جهة أخرى لا تتسم بالصحة الكاملة؛ لأن بنيتها التركيبية تختلف أو تنحرف بدرجات متفاوتة عن الصورة المثلى للكفاءة اللغوية ،وهي لهذا وذاك تسمى الجمل غير النحوية أو الجمل المقاربة.

ولما كانت الخصيصة الأساسية في الجمل هي انحرافها عن النموذج المثالي للكفاءة اللغوية أصبح هذا النموذج في نظر هؤلاء هو القاعدة أو المعيار الذي تتحدد به وتقارن عند التحليل)[٢١]

هذا، و لم يخل كل رأي من الآراء السابقة في تحديد القاعدة من نقد يوجه إليه.

فقد اعترض على الرأي الأول الذي يرى أن القاعدة هي نظام اللغة بأنه يضعف من هذا التصور أن ظواهر الكلام كتنفيذ فردى تتفرع مبدئيا عن الوصف المعجمي المبسط للنظام اللغوي ،..وينبغي من الوجهة النظرية أن يكون هناك فرق بين طرفي المقارنة ،بيد أنه تظل أمامنا صعوبة تستعصي على الحل تكمن في أنه عند وصف النظام اللغوي فإننا نعتمد بالضرورة على الجانب التجريبي لاستقاء معلوماتنا المباشرة من الاستعمال نفسه، دون الاعتماد على معايير تقعيدية مسبقة ؛فإذا لم يعتد عند وصف هذا النظام اللغوي بالانحرافات الأسلوبية فإننا لا نستطيع تعريفها اعتمادا على القواعد ؛ لأن مقولة الأسلوب تقع حينئذ في دائرة مفرغة إذ يتعين معرفة القاعدة لتحديدها ويتعين معرفتها لتحديد القاعدة.[٢٢]

ومعنى ذلك أن اعتماد اللغة قاعدة أمر غير وارد، أو بالغ الصعوبة، وذلك لأنه يلزم عنه الدور إذ إنه لكى يوصف الانحراف فلا بد من الوصف اللغوي، وإذا كان الوصف اللغوي لا يعتمد الانحراف، ولا يقعد له فمعنى ذلك أننا لا نستطيع وصف الانحراف؛ لأنه يبقى معلقا على الوصف اللغوي، وهو بدوره معلق على وصف الانحراف فيلزم الدور.

ومن ثم فقد انتقدت نظرية اعتبار الأسلوب انحرافا من جهة أنه لا يتم التعرف بذلك على الأسلوب إلا بشكل سالب بحت دون أن تتبع في ذلك خواص نوعية توضيحية له، فالدليل على الانحراف إذا هو عدم وروده في القواعد اللغوية.[٢٣]

لكن مما يجدر التنبيه إليه أن الأمر يختلف في لغتنا العربية ؛ حيث تم وصف جميع الانحرافات الأسلوبية وتم الاعتداد بها باعتبارها شاذة أو نادرة ، وذلك في عصور الاحتجاج اللغوي ،أما ما جاوز عصور الاحتجاج وخالف النظام اللغوي فإنه يحكم عليه حتما بالخطأ والفساد ؛ ومن ثم لا يمثل ظاهرة أو سمة أسلوبية تستحق الدراسة والحكم عليها ؛ ومن ثم فالمشكلة غير واردة في اللغة العربية لكونها تعتمد المنهج المعياري للحفاظ على هويتها ، ولارتباطها بالكتاب الخالد المعجز.

كما انتقد الرأي الذي يجعل القاعدة هي الاستخدام اللغوي بأن تحديد الأسلوب على أساس هذا المفهوم للقاعدة يحصره في ظواهر محدودة للغاية ،ويحرم الكتاب الذين يراعون في مؤلفاتهم أن تتمشى مع الاستعمال السائد الجيد للغة من أن نعثر في كتاباتهم على أسلوب ما نحلله.[٢٤] معنى ذلك أن يعد الانحراف عن الاستعمال السائد الجيد هو الظاهرة الأسلوبية في بعض الأحيان، وهذا قد يكون له بعض المزايا كحفز الهمة إلى الابتكار في الأساليب وعدم الرتابة، إلا أنه يؤدى كذلك إلى تعمد الخروج وتكلفه، أو أن يكون هو بذاته مقصدا فنيا، وليس الأمر كذلك؛ فالمقصد هو تحقيق التأثر في المتلقي، وقد يكون أسلوب شائع له وقع وتأثير أقوى من أسلوب مبتكر ركيك.

ويلزم على ذلك أن يكون الكتّاب الملتزمون بالاستعمال السائد كتّابا بلا أسلوب. هذا فضلا عن ندرة الظاهرة الأسلوبية بهذا المفهوم.

وكذلك انتقد الرأي الذي يجعل مستوى الكلام كإمكانية للتعبير المحايد هو القاعدة بأنه يغفل أن الظواهر الكلامية اللغوية مرتبطة دائما بالمتكلم وبالموقف مما يجعلها غير محايدة على الإطلاق ،وعلى أية حال فليس من الواضح كيفية التقاط القاعدة ووصفها لغويا على هذا الأساس ، وهذا واضح لا يحتاج إلى تعليق، فظواهر الكلام لا تتسم بالثبات الذي يتسم به نظام اللغة، ومن ثم لا تصلح معيارا أو قاعدة.

أما اعتبار القاعدة هي الاستعمال الشائع باستخدام وسائل إحصائية فالنتيجة المنطقية لذلك هي إقامة قواعد أسلوبية مختلفة للأجناس والموضوعات الأدبية المتعددة ،وفي التحليل الأخير فإننا لا نستطيع الاعتداد بغير النص المدروس نفسه كمستوى تتم عليه مقارنة النص مما قد يوجب العدول عن فكرة القاعدة الخارجية عن النص والصالحة لتحديد الأسلوب[٢٥].

وهذا يدل على عدم اطراد قاعدة الاستعمال الشائع وذلك لاختلافها وتفاوتها حسب اختلاف الأجناس الأدبية.

أما تحديد القاعدة بأنها نموذج مثالي لغوي حاضر.." فمن الواضح أن مثل هذه القاعدة لا يمكن وصفها بدقة لافتقارها للبرهان التجريبي، ومن هنا يصعب تحديدها في البحث الأسلوبي" ويمكن أن توجز مشاكل التحديد الإجرائي للأسلوب كانحراف عن قاعدة فيما يلي:

١- يترتب على هذه النظرية وجود نصوص بلا أسلوب وهي النصوص التي لا تنحرف عن قاعدة ما.

٢- ولعل أخطر ما يترتب على تطبيق هذه النظرية في تفسير النصوص الأدبية هو الاعتداد بالملامح الأسلوبية القليلة المميزة غير المستعملة عادة ، وإهمال بقية ملامح النص الدالة وبنيته الأساسية)[٢٦].

وإذا كان النظر إلى الأسلوب على إنه انحراف قد ووجه بتلك الانتقادات الشديدة من جهة عدم الاتفاق على شيء يمكن أن يتخذ كمعيار أو قاعدة صالحة ،لأن يقاس العدول عنها، وإذا كانت تلك الآراء جميعا في تحديد تلك القاعدة لن تخل من نقد متجه فلعل ما توصل إليه (رفاتير) فيما بعد - من فكرة (التضاد البنيوي) واتخاذ السياق نفسه قاعدة لقياس العدول أو الانحراف - لعل ذلك يكون أقرب هذه الآراء جميعا إلى الصواب ، مع بعض الاحتياطات والمحاذير التي ينبغي أن نلتفت إليها عند تطبيق تلك النظرية على النص القرآني مما سنبينه في حينه.

ومحور التعرف على الإجراءات الأسلوبية في نظرية (ريفاتير) هو السياق فالسياق هو الذي يمثل خلفية محددة دائمة وهو الذي يقوم بدور القاعدة وافتراض أن الأسلوب يتخلق بالانحراف الداخلي عن هذا السياق الدائم افتراض خصب ؛ إذ إننا لو اعتبرنا الطرف الآخر في نظام العلاقة بين الأسلوب والقاعدة إنما هو قاعدة عامة - مثل القواعد اللغوية - لم نستطع أن ندرك الطريقة التي يصبح بها الخروج عن هذه القاعدة إجراء أسلوبيا في حالة، وغير أسلوبي في حالات أخرى، كما لا نستطيع أن ندرك حينئذ السبب في أن بعض الوحدات اللغوية تقوم بدور وظيفي بحت في نظام علاقة معينة وبدور إجراء أسلوبي في نظام آخر، ولا كيف يكتسب الإجراء الأسلوبي - الذي أصبح من كثرة استعماله (اكليشيها) أو صكا لغويا فارغا - قوته التعبيرية مرة أخرى ويبرز من القول العادي. ولا نعرف أيضا كيف يمكن لبعض الأساليب الرفيعة التي لا تكاد تختلف عن صيغ اللغة البسيطة العادية أن تتوفر لها خصائص متميزة.[٢٧]

وأحب أن أضيف إلى هذه المزايا لنظرية السياق، أن السياق هو الأصل الموثوق به في عملية العدول، فهو وحده الأصل الذي يمكن مشاهدته والإمساك به ووضعه موضع المقابلة بينه وبين أي وحدة من وحداته، ولا يمكن ذلك بسهولة بالنسبة للقواعد الأخرى كقاعدة الاستخدام اللغوي أو الاستعمال الشائع، أو اعتبار مستوى الكلام أو النموذج المثالي أو غير ذلك ؛ لأن هذه القواعد جميعا ليست شيئا حاضرا أو جاهزا أمام الناقد يستطيع أن يضعه بإزاء النص، وإنما هو شيء يحتاج إلى معاناة للحصول عليه، فضلا عن أنه لا يتحقق الحصول عليه ويظل مجرد فرض محتمل الوقوع.

فضلا عن أن اعتماد السياق قاعدة للانحراف يتضمن كذلك غيره من القواعد؛ بل لعله يكون هو المظهر الوحيد لها أو الدال عليها. فعلى سبيل المثال إذا ما اتخذنا نظام اللغة قاعدة للانحراف أو العدول فإننا لا نستطيع إدراك ذلك الانحراف أو العدول عن قاعدة النظام اللغوي إلا ضمن سياق الكلام، إذ إن الدلالة الإفرادية للصيغ والألفاظ لا اعتبار بها خارج السياق ؛ ومن ثم فلا اعتبار إلا بالدلالة التركيبية، وهي دلالة السياق لا غير، ومن ثم يصبح السياق هو مظهر العدول الحقيقى عن أي قاعدة من القواعد، ومن ثم يكون جديرا بأن يكون هو القاعدة السائدة في قياس العدول.

والسياق الأسلوبي عند ريفاتير ليس هو التداعي وليس هو التوالي اللغوي الذي يحصر تعدد المعنى أو يضيف إيحاءات خاصة للكلمات بل هو (نموذج لغوي ينكسر بعنصر غير متوقع) والتضاد الناجم عن هذا الاختلاف هو المثير الأسلوبي. وقيمة التضاد الأسلوبية تكمن في نظام العلاقات الذي يقيمه بين العنصرين المتقابلين فلن يكون له أي تأثير ما لم يتداع في توال لغوي. وبعبارة أخرى فإن عمليات التضاد الأسلوبية تخلق بنية مثلها في ذلك مثل بقية التقابلات المثمرة في اللغة.[٢٨]

إن نظرية العدول السياقي عند ريفاتير هي أقرب شيء إلى ظاهرة الالتفات في البلاغة العربية ولذا تعد من نقاط الالتقاء بين الأسلوبية الحديثة وبين البلاغة العربية في تناولها لظاهرة العدول وخاصة في مبحث الالتفات.[٢٩]

وإذا كانت البلاغة العربية قد بدأت بافتراض ما يناسب حال المخاطب ؛ فإن نظرية السياق عند ريفاتير تبدأ في رصد الظواهر الأسلوبية بما يتحقق فعلا من حال المخاطب، وما هو ناشئ لا عن ملابسات النص بل عن النص نفسه ونتيجة له.

ومن ثم فلعلها تكون من هذه الزاوية أقرب واقعية في الوقوف على الظواهر الأسلوبية المؤثرة بالفعل لا بالقوة ؛ إذ إن البلاغة العربية تنتهي بذلك إلى تحديد ظواهر أسلوبية مؤثرة بالقوة قد تؤثر في المتلقي في عصر دون عصر وفي مكان دون مكان، وتختلف من مخاطب لآخر.

أما الظواهر الأسلوبية التي تحددها نظرية السياق الأسلوبي عند ريفاتير فهي رصد للظواهر الأسلوبية المتحققة بالفعل في سياق بعينه داخلا في ذلك السياق البيئة الزمانية والمكانية المقول فيها وطبيعة المخاطب وحاله وملابسات القول وغير ذلك.

وعندما نختبر هذا المفهوم للسياق الأسلوبي نجد أن تكوين النموذج الذي يتحكم في دهشة القارئ يتبع بالضرورة خط تعاقب الجمل المكونة للقول ؛ وبهذا يمكن أن يتمثل السياق في جزء خطي يمضي في اتجاه يتقدم عين قارئ السطور ...وتتراكم على مدار

القراءة المعلومات والصيغ وتذكر المتواليات السابقة ،وكلما اتضحت معالم النموذج الكتابي كلما اشتد بروز التضاد عند ظهوره. فلو كنا نقرأ رواية مثلا تحكى وقائعها بصيغ الماضي المتوالية فإن الاستخدام المفاجئ لصيغة المضارع يضاد السياق السابق كما أن مجموعة من الجمل المتوالدة المتداخلة تهيئ سياق التضاد لجملة اسمية مركزة منفردة.

ويلاحظ على هذا الوصف للسياق الأسلوبي أنه يقتضى أمرين أحدهما يتمثل في أنه محدود المدى يحدُّه تذكُّر ما قرأناه للتوِّ ، ويحدُّه تلقِّي ما نقوم بقراءته؛ فالسياق إذن يتبع القارئ ويغطِّي جميع متواليات القول ،..ويترتب عليه كذلك إمكانية توالى المتعلقات الأسلوبية أي أنه إذا كان النموذج الأول هو(السياق الإجراء الأسلوبي) ؛فإن هذا الإجراء الأسلوبي يمكن بدوره أن يصبح سياقا لإجراء آخر يتضاد معه فيقوم بدور الإجراء المضاد لما قبله والسياق الذي يتضاد معه ما بعده"[٣٠] ونتبين من ذلك عدة أمور، ومن أهمها:

١- إمكان الوقوف على الظواهر الأسلوبية في النص في الحال دون الرجوع إلى مراجع أخر خارجية غير السياق.

٢- الوقوف على تنوع السياق أو تداخل السياقات، حيث إن الظاهرة الأسلوبية أو الإجراء الأسلوبي نفسه قد يتحول إلى سياق جديد أو قاعدة جديدة يقاس إليها العدول أو الانحراف الواقع بعدها، وذلك أن الظواهر الأسلوبية المتقابلة حينما تتوالى في نسق تعبيرى واحد فإن كلا منها تهيئ (سياقا) جديدًا للظاهرة التي تليها. فعلى سبيل المثال إذا تعاقبت في نسق واحد صيغ الإفراد، الجمع، التثنية، الإفراد؛ فإن الانحراف الأول عن الإفراد إلى الجمع (وهو الظاهرة الأسلوبية الأولى) يحول مسار السياق بحيث يصبح الجمع هو النمط الذي يتوقعه المتلقي؛ أي أن صيغة الجمع تؤدى حينئذ دور (القاعدة) التي ينعكس عليها الانحراف الثاني إلى التثنية (الظاهرة الثانية) ومعنى ذلك أننا نكون مع كل نقطة من نقاط التعاقب إزاء (سياق-< مسلك أسلوبي يبتدىء سياقا جديدًا-< مسلك أسلوبي-< وهكذا)[٣١]

وقد استطاع ريفاتير أن يكشف لنا عن ثلاثة نماذج أو معادلات من المزاوجة بين السياق والمخالفة، فيما سماه بالسياق الأصغر، والسياق الأكبر، ويسمى ريفاتير وحدته الأساسية (السياق الأصغر)؛ فهذا مع الانحراف أو المخالفة يكونان معا ما يسميه مسلكا أسلوبيا. (أي أن المسلك الأسلوبي عنده هو ثنائية بنيوية تعتمد على التضاد، وطرفاه، السياق والمخالفة)[٣٢]

ويمثل ريفاتير هذه الوحدة بالمعادلة التالية: نسق أصغر + مخالفة = مسلك أسلوبي.)

وفي مقابل هذا السياق الأسلوبي الأصغر يحدد ريفاتير لونا آخر من السياق الأكبر يتمثل في نموذجين يعبر عنهما بالمعادلتين الآتيتين:

١- السياق---< المسلك الأسلوبي---< السياق

٢- السياق--< المسلك الأسلوبي كنقطة انطلاق لسياق جديد---< مسلك أسلوبي.[٣٣]

وبهذا نكون قد وقفنا على أهم مزايا السياق الأسلوبي عند ريفاتير، حيث يرى (ريفاتير) أن السياق لا ينفصل عن الإجراء الأسلوبي ويتميز بالخواص التالية:

١- التلاؤم اللازم مما لا يحدث بالضرورة بالنسبة للقاعدة.

٢- قابليته الفورية للتحديد وإمكانية الإمساك به على التوِّ فليس غامضا ولا مبهما ولا ذاتيا.

٣- التنوع، إذ إنه يشكل مجموعة من مظاهر التضاد مع الإجراءات الأسلوبية المتوالية وهذا التنوع هو الذي يوضح لنا السبب في أن وحدة لغوية ما تكتسب تأثيرها الأسلوبي أو تعدِّله أو تفقده نظرًا لوضعها كما أنه هو الذي يوضح لنا السبب في عدم اعتبار اضطراد القاعدة واقعة أسلوبية).[٣٤]

هذه المزايا كلها لا نحصل عليها عند اتخاذ أي قاعدة أخرى لقياس العدول غير قاعدة السياق الأسلوبي(فهذه النظرية إذًا تؤدي إلى وصف مقنع للنص الأدبي من وجهة نظر لغوية، ورصد واضح للظواهر اللافتة فيه)[٣٥]

وإذا كانت نظرية السياق بما عرضنا من سماتها السابقة تعد أكثر صلاحية من غيرها في الوقوف على الظواهر الأسلوبية وتقويمها عن طريق العدول فإنها (تحمل في ثناياها خطراً لا بُدَّ من التنبيه إليه ، وهو أنها قد تؤدى إلى المبالغة في تجسيد أهمية الظواهر اللافتة للنظر، وهي أهمية أسلوبية بطبيعة الحال بشكل يقصر الأسلوب على الخواص غير المتوقعة والظواهر البارزة فحسب مما يدفعنا إلى ضرورة البحث عن الجوانب المكملة لهذه النظرية الأسلوبية من خلال دراسة الأبنية ومعدلات تكرارها ودورها في تكوين الأسلوب بالرغم من أنها غير مفاجئة في النص إذ إنها تظل ذات قيمة في خلقه).[٣٦]

لكن مما يجب التنبيه إليه هنا أن دلالة السياق في كلام ريفاتير تتخذ دلالة شكلية لفظية تختلف عن الدلالة التي شاعت لمصطلح السياق في تراثنا النقدي والبلاغي – تلك الدلالة التي يمكن أن توصف بكونها دلالة معنوية أكثر منها شكلية لفظية ؛ فالسياق في كلام البلاغيين والمفسرين البيانيين للقرآن الكلام كانت تقترب دلالته من معنى المقام ، أو الغرض

الذي سيق الكلام لأجله ، أو الجوّ العام ،أو المناسبة ، أو الفكرة الرابطة بين الآيات ، ونحو ذلك .

لكنه عند ريفاتير ينحو منحى شكليًّا لفظيًّا ؛ حيث يمثل لذلك بـ" رواية مثلا تحكي وقائعها بصيغ الماضي المتوالية فإن الاستخدام المفاجئ لصيغة المضارع يضاد السياق السابق كما أن مجموعة من الجمل المتوالدة المتداخلة تهيئ سياق التضاد لجملة اسمية مركزة منفردة."[٣٧]

وهذا ؛ وإن كان يمكن أن يصدق عليه مصطلح السياق بوجه من الوجوه ؛ فإنه لم يشع في تراثنا النقدي والبلاغي مستخدما بهذه الدلالة لمثل تلك الظاهرة التي عرفت في ذلك التراث بمصطلحات أخر لعل منها مصطلح (مراعاة النظير).

وفي نحو ذلك يقول ابن الأثير :" ورد في القرآن الكريم " إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدةٌ " فلفظة " لي " ... جاءت في الآية مندرجة متعلقة بما بعدها، وإذا جاءت منقطعة لا تجيء لائقة، كقول أبي الطيب أيضاً:

تمسي الأماني صرعى دون مبلغه ... فما يقول لشيءٍ ليت ذلك لي

وربما وقع بعض الجهال في هذا الموضع فأدخل فيه ما ليس منه، كقول أبي الطيب:

ما أجدر الأيام والليالي ... بأن تقول ما له وما لي

فإن لفظة " لي " ههنا قد وردت بعد " ما " وقبلها " ما له " ثم قال " وما لي " فجاء الكلام على نسقٍ واحد، ولو جاءت لفظة " لي " هاهنا كما جاءت في البيت الأول لكانت منقطعة عن النظير والشبيه، فكان يعلوها الضعف والرِّكة ،وبين ورودها هاهنا وورودها في البيت الأول فرق يحكم فيه الذوق السليم."[٣٨]

فانظر كيف جعل لفظة (لي) لائقة في الآية الكريمة ، وكذلك في البيت الثاني للمتنبي دون بيته الأول ، وما ذاك إلا لمراعاة النظير فيما استحسنت فيه دون ما استهجنت .

وقد جاء هذا اعتمادا على النظر إلى ما ورد قبلها ، وهو عين ما يقصده ريفاتير بما ترجم عنه بالسياق ، وهو يختلف بلا شك عن المدلول الشائع للسياق في تراثنا البلاغي.

أمر آخر نود الإشارة إليه قبل اعتماد تلك النظرية في الدرس القرآني ، وهو : أن المخالفة أو العدول الذي يحتاج إلى التبرير الفني قد يقع في القرآن الكريم في أول النص (السورة) ، وذلك كما في قوله تعالى :"ذلك الكتاب" في أول البقرة – وعلى القول بأن (ذلك) إشارة للبعيد ، وعبر بها هنا عن القريب ؛ فإن ذلك يمثل نوعا من العدول الفني الذي يحتاج إلى تفسير وتحليل وتبرير فنيٍّ – إذا اعتبرنا السياق الذي عدل عنه هو الغرض

أو السياق العام للآيات بمعناه البلاغي الشائع ، أو اعتبرنا القاعدة هي الاستعمال الشائع ، وهو ما يوصف في نظام اللغة بالأصل ، أو الوارد بكثرة ، دون الشاذّ والنادر الوارد بقلّة.

في حين أننا لو اقتصرنا على اعتماد نظرية ريفاتير في السياق دون اعتبار طبيعة اللغة أو الكتاب الذي هو محل الدراسة ؛ فإننا سنبقى عاجزين عن تحليل مثل تلك الأمثلة ؛ لأن الكلمة (ذلك) لم ترد مخالفة لأي متوالية لفظية سابقة لكي نقوم بتبرير العدول عن تلك المتوالية .

والجدير بالذكر أن الدراسات السابقة للمفسرين ، وهي – في نظري – دراسات أسلوبية عربية من الطراز الأول – قد وقفت أمام مثل ذلك النوع من العدول ، وبررت له تبريرات عديدة منها ما هو لغوي محض يرجع إلى النظر في إطار الصحة اللغوية وحدها كالقائلين بالتعاقب والتناوب بين (هذا) و(ذلك) [٣٩]، ومنها ما هي تبريرات فنية كالقول بأنها إشارة إلى ما سبق وهو (الم) [٤٠]، وقيل ما سبق هو الفاتحة [٤١]، على اعتبار أن ما انقضى في حكم المتباعد [٤٢]

وقيل : المشار إليه بـ (ذلك الكتاب) (القرآن) "فإنه منزَّل منزلة المشاهد بالحسّ البصري ، وما فيه من معنى البعد ، مع قُرب العهد بالمشار إليه ؛ للإيذان بعلوِّ شأنه ، وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف ، أثر تنويهه بذكر اسمه."[٤٣] وتنزيلا للبعد الرتبي منزلَة البعد الحقيقي ، كما في قوله تعالى : " فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ"(يوسف :٣٢)

ومما يجدر الالتفات إليه كذلك عند الإفادة من نظرية السياق عند ريفاتير أنه لا يمكن الاقتصار عليها وحدها في معالجة النص القرآني أو النص العربي ؛ بل ينبغي الإفادة من القواعد الأخرى كقاعدة الاستعمال الشائع .

فعلى سبيل المثال في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:١٠) .

فالملاحظ في هذه الآية أنها هي الآية الوحيدة في القرآن التي جاء ضمير الغائب الموصول فيها مضموما؛ لأن القاعدة الشائعة في مجيئه في القرآن هي الكسر فيقال (عليه) بالكسر لا بالضم؛ وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب : ٣٧) ،وكما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.(هود :١٢٣)

ومن ثم يمثل الضم في هذه الكلمة عدولا عن القاعدة الصوتية القرآنية، فيا ترى ما سرّ هذا العدول؟

إذا تأملنا سياق الآية وجدناها عن مبايعة المؤمنين لرسول الله ﷺ وتعظيم الله تعالى تلك البيعة ووصفها بأنها مبايعة له هو سبحانه، وإذا كانت البيعة لله رب العالمين فإن حقها التفخيم والتغليظ والتشديد والتوثيق، ولذا جاء الضمير في (عليهُ) مضموما إشعارا بذلك التفخيم، وذلك ما لا يوحي به مجيء الضمير على أصل القاعدة مكسورا في هذا السياق، وأمر آخر يكشف عن القيمة الفنية لهذا العدول الصوتي، وهو أن حركة الحرف السابق على لفظ الجلالة يؤثر فيه بالتفخيم والترقيق حسب القاعدة الصوتية لنطق هذا اللفظ في القرآن الكريم؛ فإذا جاءت الهاء في (عليه) مكسورة كانت اللام من لفظ الجلالة مرققة، أما حيث جاءت الهاء مضمومة فإن اللام من لفظ الجلالة تنطق مفخمة فيتناسب تفخيم لفظ الجلالة مع ما يقتضيه السياق من تعظيم المُعَاهَد، وتفخيم شأنه، والتحذير من نكث العهد معه.

لكننا إذا اقتصرنا على العمل بنظرية السياق عند ريفاتير ؛ فإن مثل هذه الآية لا تدخل معنى ؛ لأن كلمة عليه لم ترد في هذه السورة إلا في هذا الموضع وحده ، اللهم إلا أن نعتبر القرآن كلّه نصًّا واحدا ؛ وهذا أمر يرجع إلى نظرتنا لطبيعة هذا الكتاب زطريقة تعاملنا معه .

ومما يجدر الإشارة إليه أن البلاغيين – لا سيما التطبيقين منهم كمفسري القرآن خصوصا – لم يغفلوا اعتبار السياق هو القاعدة الأهم في رصد ظواهر العدول في النص القرآني ، ولعل ذلك سوف يتضح بصورة كبيرة فيما سوف نستشهد به من كلامهم ،فيما نعرض له من النماذج التطبيقية للعدول في القرآن الكريم .

فقد تردد مصطلح العدول في التراث البلاغي القديم باعتباره عدولاً عن القاعدة اللغوية العامة، أو عن السياق، أو غير ذلك مما اختلف فيه نظرة الأسلوبيين المحدثين.

فعلى سبيل المثال نجد تعبير أبي هلال العسكري بمصطلح العدول للدلالة على الخروج على الأصل اللغوي وذلك في مثل مفاضلة بين (الرحيم) و(الرحمن) حيث يقول "فإن (الرحيم) مبالغة لعدوله، وإن (الرحمن) أشد مبالغة لأنه أشد عدولا"[٤٤] والذي يعنينا هنا هو استخدام أبي هلال لمصطلح العدول واتخاذه أساسا يقاس عليه تحقيق المبالغة المطلوبة التي يقتضيها المقام.

ومعنى ذلك أنه يلفتنا إلى أساس ثان غير الاختيار يمكـــن اعتمــاده في التوظيـــف البلاغي لصيغة الكلمة.

نجد هذا الملمح كذلك عند الباقلاني ت ٤٠٣هــ حيث يرى كذلك أن (رحمـــن عدل عن راحم للمبالغة)[٤٥] فيذهب إلى نحو ما ذهب إليه أبو هلال آنفا.

والذي أراه أن العدول الذي ذكره كل من أبي هلال والباقلاني في هذا الموضـــوع إنما هو بالنظر إلى الصيغة في ذاتها أي في حالة الإفراد لا في حالة التركيب، أي أن المقارنـــة إنما تمت بين كل من (راحم ورحمن ورحيم) خارج سياقات الكلام، وعلى هذا تم الخروج بهذه القاعدة أن رحيم عدل بها راحم فهي أبلغ منها، ورحمان أشد عدولا فيه أشد مبالغة.

وليس المقصود أنه عدل في هذا الموضوع أو هذا السياق عن راحم أو رحمـــن، إذ إنه ليست هناك قرينة توجب كون أصل التعبير في هذا السياق باسم الفاعل راحم ثم عدل عنه إلى زيادة المبنى ونقصانه إنما تترتب على زيادة المعنى ونقصانه، لا على أن الأصل هـــو عدم الزيادة.

والذي يبدو أن مصطلح العدول قد وظف هنا بمعنى إيثار صيغة دون أخرى، وهذا يدلنا على أنه كان يخلط بينه وبين المعنى الدقيق للاختيار أحيانا.

أما الزمخشري ت ــ ٥٣٨ هــ فقد جرى نظريا على نهج ابن المعتز في قصر ظاهرة الالتفات على المخالفة بين الضمائر[٤٦] وتبعه على ذلـــك الـــسكاكي في مفتاحـــه، إلا أن الزمخشري قد التفت في تطبيقاته القرآنية إلى ظاهرة العـــدول وإن لم يـــسمها بمـــصطلح الالتفات الذي قصره على مدلول المخالفة بين الضمائر.

وقد كان للزمخشري النصيب الأعظم في هذا الباب وتبعه على هذا النهج كافة من جاء بعده من المفسرين حتى إن بعضهم لا يزيد في كثير من المواضع على أن يحكي عبـــارة الزمخشري في بيان ما اشتملت عليه الآية من اختيار أو عدول في جانب الصيغ، والحق أنـــه ما أبلى أحد في هذا الأمر ما أبلا ضياء الدين بن الأثير ت ٦٣٧ هـــــ في كتابـــه "المثـــل السائر" من كلامه فيم سماه تارة بالعدول، وتارة بالنقل أو الانتقال وذلك في الفصل الـــذي عقده بعنوان"قوة اللفظ لقوة المعنى"[(٤٧)].

لعلنا بعد ذلك نكون قد استطعنا غربلة هذا المنهج الأسلوبي قبل إعماله في النص القرآني ، وبينا في الوقت نفسه جذوره عند البلاغيين العرب؛ بحيث نكون على بينة مما نأخذ منه أو نذر مما يلائم طبيعة هذا الكتاب المقدس.

ومن ثم نستطيع أن نقدم تصورا لصور وأنماط العدول في القرآن الكريم كالتالي:

١- العدول المعجمي

٢- العدول الصوتي

٣- العدول الصرفي

٤- العدول النحوي : ويشمل :

(أ)العدول في حروف المعاني

(ب) العدول الرتبي (التقديم والتأخير الرتبي) .

(ج) العدول المعنوي (التقديم والتأخير المعنوي) .

(د) العدول الضمائري (أسلوب الالتفات) .

أولا : العدول المعجمي :

ويقصد به البحث العدول عن لفظة إلى أخرى ، قصدا إلى مادتها اللغوية - بما تحمله من دلالة سياقية - لا إلى صيغتها ، أوبنيتها الصوتية ، أو موقعها النحوي ؛ وذلك لغرض بلاغي تتحقق به مطابقة الكلام للمقام والسياق الذي سيق فيه.

ولعل من أمثلة هذا النوع من العدول ما سبق ذكره في سياق بيان ضابط العدول من العدول عن (هذا) إلى (ذلك) في قوله تعالى :"ذلك الكتاب".

ومنه أيضا ما يمثل نوعا من العدول الشائع في القرآن كلّه عن لفظة (إله)إلى (ربّ) أو العكس بحسب ما يقتضيه المقام لتحقيق غرض بلاغي .

وذلك كما في قوله تعالى:" مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" (البقرة :١٠٥)

حيث نلحظ العدول عن التعبير بلفظ الربوبية — الذي جاء مناسبا لتنزيل الخير — وهو المختص بالربوبية - إلى التعبير بلفظ الألوهية الذي جاء مناسبا للاختصاص بالرحمة المترتبة على اختصاص العباد له بالعبودية التي هي أخص معاني الألوهية.

قال الطيبي :"قال : (من ربكم) ؛ لأن إنزال الخير مناسب للربوبية ، ثم أعاده بلفظ (الله) ؛لأن تخصيص بعض الناس بالخير دون بعض مناسب للألوهية ، وقال :(من خير) فعم ثم خصَّ ليعلم أن الخير كله في رحمته "[٤٨]

وذلك أن ثمة فارقا واضحا ومطردا في الاستعمال بين الرب والإله[٤٩] ؛ فالرب هو المالك السيد المدبر المربي عباده بنعمه ، القاهر لهم في قبضته ، أما الإله فاشتقاقه من أله بمعنى عبد ، فهو فعال بمعنى مفعول أي :إله بمعنى مألوه أي معبود ؛ فمن ثم عدلت الآية عن سياقها

الداخلي ، وعدلت عن اللفظ السابق وهو الربوبية إلى الألوهية للتنبيه على أن الاختصاص بالرحمة مترتب على اختصاص العبد ربه بالتأله أي التعبد .

وهذا التفريق نراه مطردا كذلك ومعتبرا في جميع آيات القرآن الكريم لا تشذ منه آية واحدة ؛ ومن أجل طرده يترك مراعاة النظير ، وتأتي المخالفة للنسق — وهو ما عرف عند ريفاتير بالسياق .

فمن ذلك أيضا قوله تعالى :" وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا" (الكهف :١٦)

حيث نلحظ اطراد التعبير بلفظ الألوهية في :(لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا – اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً – افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا – وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ)

بينما نجد التعبير بلفظ الربوبية في :(فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ – يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا)

حيث نجد أن الآيات لم تسر على نسق واحد بل خالفت بين كل من الربوبية والألوهية فوضعت كل لفظ في المعنى الذي يناسبه .

فالدعاء عبادة وتأله ؛ ومن ثم ناسبه لفظ الألوهية .

واتخاذ الإله هو التأله والتعبد ؛ فمن ثم ناسبه لفظ الألوهية .

والشرك افتراء على الإله المعبود بادعاء الشريك له ؛ فمن ثم ناسبه لفظ الألوهية .

والعبادة هي التأله (وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ) ؛ فمن ثم ناسبها لفظ الألوهية .

فإذا ما تأملنا التعبير بالربوبية وجدناه مناسبا لمعناه الذي سيق له كذلك :

فملك السموات والأرض وتدبير أمرهما أمر يرجع بلا شك إلى معنى الربوبية — لا إلى معنى الألوهية ؛ فلذلك عبرت الآية معه بلفظ الربوبية لا الألوهية .

ونشر الرحمة والعناية وتهيئة الرزق وسائر ما يرتفق به الإنسان في حياته أمر يرجع بلا شك إلى معنى الربوبية كذلك — لا إلى معنى الألوهية ؛ فلذلك عبرت الآية معه بلفظ الربوبية لا الألوهية .

وكذلك إذا ما تأملنا في فاتحة الكتاب ، وفي أول آية في ترتيب المصحف بعد الافتتاح بالبسملة في قوله تعالى :"الحمد لله رب العالمين" نلاحظ كيف علقت الألوهية بالحمد الذي هو في الحقيقة تأله وتعبد ؛ بينما علق العالمين بالربوبية المالكة لهم المدبرة لأمرهم .

وكذلك علق الاستفتاح في البسملة باسم الله ؛ لكون الاستفتاح بالبسملة استعانة وتأله وتبرك.[50]

والحق أن مثل هذا النوع من العدول كثير في القرآن الكريم ، وأمثلته مما ينأى عن الحصر ؛ ولكننا نذلل فقط على وجوده في القرآن ، وتعلق البلاغة والإعجاز به.

ثانيا : العدول الصوتي:

ونقصد به ذلك العدول من كلمة لأخرى لأجل ما تمتاز به من تشكيل صوتي تتحقق به مطابقة الكلام للمقام .

وإذا ارتضينا اعتبار شيوع الظاهرة في نص ما هو القاعدة التي يتم العدول عنها؛ فإننا نستطيع أن نقرر أنه قد تم العدول الصوتي عن القاعدة الصوتية الشائعة في القرآن الكريم ـعلى سبيل المثال ـ في عدد من المواضع لأغراض فنية، نحاول الكشف عنها في بعض ما نعرض من الأمثلة.

فمن المواضع العجيبة التي تمثل عدولا صوتيا عن السياق القرآن لفظ (مجراها) بإمالة الألف لتكون قريبة في نطقها من الياء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١)﴾ (هود:٤١).

حيث نلاحظ أن هذه اللفظة (مجراها) هي اللفظة الوحيدة في السياق القرآن كله في قراءة حفص التي تتسم بهذه السمة الصوتية (سمة الإمالة).

وحينما نتأمل سياق الآية نشعر مدى مناسبة هذه اللفظة لجوها السياقي؛ فالأمر بركوب السفينة هنا متجه إلى هؤلاء المؤمنين من أتباع نوح ـ عليه السلام ـ وقد أمروا بركوب تلك السفينة الغريبة العجيبة التي لا عهد لهم بها من قبل، وهي راسية على بر ليس فيه قطرة ماء، ومن هنا كان التعجب من جري هذه السفينة وكونها وسيلة للنجاة.

فطمأنهم الله تعالى إلى أن هذه السفينة سوف تجري بمشيئته وبكرته (بسم الله) وأن جريها سوف يكون سهلا رخاء بلا معاناة ولا مشقة، ومن ثم جاءت الإمالة في مجراها لتعبر عن حركة تلك السفينة حيث تشق عباب الطوفان في يسر وسهولة ورخاء.

وحينما أراد الله تعالى أن يطمئنهم لرسوها، جاء لفظ (مرساها) بال إمالة ليعبر عن حال رسو السفينة وما يناسبه من الثبات والاستقرار مما لا يتلاءم مع صفة الإمالة الواردة في مجراها.

ومن مظاهر العدول الصوتي في القرآن الكريم كذلك، ذلك العدول بفك الإدغام في لفظة (يحببكم) في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣١)﴾ (آل عمران:٣١)، فالقاعدة الصوتية هنا هي الإدغام كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾ (المائدة:٥٤).

ويمكننا أن نعلل لفك الإدغام في الآية الأولى بالنظر إلى سياقها فهو سياق ترغيب في اتباع الرسول، وبيان أنه شرط لثبوت الإدعاء بمحبة العبد لربه، ووعد بالجزاء الحسن على تلك المحبة وذلك الاتباع، وقد جعل الله تعالى الجزاء من جنس العمل، فجعل جزاء هؤلاء الصادقين في محبته، محبة مضاعفة منه سبحانه لهم فكان في فك الإدغام في الباء المشددة ما يشعر بمضاعفة محبته تعالى وبسطها ومدها لمن أحبه واتبع رسوله.

كما أن هذا الفك معنى آخر نستطيع أن نستشفه من الآية وهو أن في لفظ يحببكم بفك الإدغام من الرقة ما ليس في اللفظ المدغم، فالناطق بالكلمة بهذه الطريقة يستشعر ــولله المثل الأعلى ــ في اللفظ تدليلا وتنعيما للمخاطبين، كما يوحي قرب مخرج الباء الشفوية بتقريبهم، كما يوحي إسكانها بما في هذه المحبة من طمأنينة القلب وسكينته.

أما في آية المائدة التي جاءت على الإدغام فقد كان الإدغام أنسب لسياقها لكونها تتحدث عن الجهاد في سبيل الله، وهذا سياق يناسبه التشديد والخشونة فمن ثم جاءت الكلمة مدغمة إظهارا لذلك التشديد.

ومن مواضع العدول الصوتي العجيبة في القرآن الكريم كذلك لفظ (يَهِدِّي) في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(يونس:٣٥).

ونظرا لأننا سوف نكتفي بهذه الآية فإننا سوف نتعرض لما فيها كذلك من ظاهرة اختيار صوتي للمد وتركه في هذه الآية، بالإضافة إلى ما فيها من عدول في لفظ (يهدِّي).

حيث نلاحظ المد في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ حيث يجوز مد الياء من يهدي لوجود سببها وهو الهمزة بعدها، بخلاف يهدي الثانية في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ حيث يمتنع المد لامتناع سببه، وكذلك يجوز المد في: ﴿يَهِدِّي إِلا﴾ لوجود الهمز بعد الياء، ويمتنع في (يهْدى).

وإذا تأملنا أولا: أسباب اختيار المد في مواضعه في الآية مسترشدين بالسياق، وجدنا ذلك التناسق العجيب بين الآية بسياقها وما احتف بها من دلالات أخر صوتية ومعجمية وصرفية ونحوية.

فالآية إنما تعقد مقارنة بين هداية الله تعالى لأوليائه، ومن ثم استحقاقه للعبودية، وبين حال الآلهة الباطلة المزعومة من حيث العجز عن تقديم أي نوع من الهداية لشركائهم قلّ أم كثر، طال طريقه أم قصر، ولذا جاءت الآية بهذا الأسلوب الاستفهامي الإنكاري: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ ويأتي المد في ياء يهدي ليوحي بطول طريق الهداية لدى هؤلاء الشركاء لو هَدُوا، وتتضافر دلالة المد هنا وهي دلالة صوتية مع الدلالة المعجمية لكلمة (إلى) التي تفيد بعد المسافة، فكأن الله تعالى يقول لهم: "هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ولو بطريق طويل بعيد؟!" ويأتي الجواب في صورة التحدي الذي لا يحتمل الموازنة والمقارنة: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وهنا تأتي الدلالة الصوتية ممثلة في ترك المد في ياء يهدي إيحاء بقصر مسافة الهداية بالنسبة لله تعالى، فهو يهدي إلى طريق مستقيم، والطريق المستقيم هو أقصر الطرق المؤدية إلى الحق.

وتتضافر تلك الدلالة الصوتية مع الدلالة المعجمية لحرف اللام الذي يفيد قرب المسافة ولصوقها، فهدايته سبحانه تقربك للحق وتلصقك به من أقرب الطرق وأقصرها.

ثم يأتي الاستفهام التوبيخي: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ وهنا يأتي المد في الهداية المنسوبة إلى الحق سبحانه، ليصبح المعنى: أفمن يهدي إلى الحق ولو بطريق طويل ــ (مع أن طريق هدايته أقصر الطرق، ولكن كأنه يعبر عن طوله في نظر المعرضين) ــ أحق أن يتبع أم من لا تكون منه الهداية أصلا ولو ببطء شديد وتراخ إلى الأبد؟!

وهنا يأتي العدول الصوتي في كلمة (يَهِدِّي) التي لا نظير لها في السياق القرآني كله لتعبر بذلك التشكيل الصوتي، وتلك الطريقة النطقية عن البطء الشديد في الهداية يستفاد ذلك البطء من كسر الهاء التي تأتي من أقصى الحلق ليصطدم الصوت بالدال الأسنانية المشددة المكسورة التي يظل الصوت حبيسا عندها لتضعيفها ثم يتمادى به في الهوى مع الياء الممدودة مدا طويلا، لوجود سبب المد بعده وهو همزة إلا، ليوحي ذلك المد بطول طريق الهداية مع بطئها الشديد كذلك.

ثم يزداد عجبك بعد ذلك إذا تأملت أن تلك الهداية مع بطئها وطولها الشديد وتراخيها الأبدي منفية كذلك على كل حال، فهؤلاء الشركاء لا يهدون أبدًا بحال من

الأحوال؛ إلا أن يهدوا، ولا تكون الهداية إلا من الله تعالى، فهم لا يهدون أصلا من قبل أنفسهم.

من مواضع العدول الصوتي في القرآن الكريم أيضًا كلمة (سأقيها) في قراءة ابن كثير[٥١] (وكشفت عن سأقيها) في قوله تعالى:﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ [٥٢] حيث عدلت الآية عن القاعدة اللغوية المطردة بتسهيل الهمز في (ساقيها) وهو الأصل ،وعدلت عنه إلى ما يمثل خروجا على هذه القاعدة (بالهمز) لغرض بلاغي هو الإيحاء بالتهكم أو السخرية من صنيع الملكة بلقيس في هذا الموضع، فكأن الآية بذلك تحاكي صوت الضاحك الساخر من فعلها بكشفها عن ساقيها حينما أوت بدخول الصرح وحسبته لجة ماء فكشفت عن ساقيها لتخوض تلك اللجة المتوهمة، بينما هي صرح ممرد من قوارير زجاجية لامعة تبدو فيها صورة الواقف عليه وكأنه ناظر إلى الماء أو واقف عليه.

وبهذا نرى ما لهذا العدول الصوتي من قيمة فنية في هذا السياق، تتضافر مع العناصر الدلالية الأخرى.

ثالثا : العدول الصرفي :

من أمثلة هذا العدول الصرفي السياقي تلك الأمثلة التى عرض لها ابن الأثير فى حديثه عن القسم الثاني من الالتفات حيث قسم الالتفات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: وهو ما يختص بالضمائر[٥٣] وسوف نعرض له في القسم الخاص به من هذا البحث.

الثانى والثالث: يختصان بالالتفات أو الانتقال الواقع فى صيغ الأفعال، وهو ما يعنينا فى هذا الموضع من البحث.

فمما جاء منه قوله تعالى﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (هود:٥٤)؛ فإنه إنما قال" أشهد الله واشهدوا" ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه:" اشهد على أنى أحبك" تهكما به واستهانة بحاله[٥٤] فالعدول هنا فى كلام ابن الأثير قد وظف توظيفا صحيحا لأنه عدول عن الأصل السياقى؛ وذلك لأن السياق يقتضى

(وأشهدكم) بصيغة المضارع إلا أنه قد عدل عن هذا الأصل السياقى للنكتة التى بينهما ابن الأثير.

ويمضى ابن الأثير فى عرض أمثلة هذا النوع من الالتفات فيقول:" وكذلك يرجع عن الفعل الماضى إلى فعل الأمر إلا أنه ليس كالأول، بل إنما يفعل ذلك توكيدا لما أجرى عليه فعل الأمر لمكان العناية بتحقيقه كقوله تعالى﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩) وكان تقدير الكلام: أمر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده فى نفوسهم، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم أتبعها بالإخلاص الذى هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية ولهذا قالﷺ "الأعمال بالنيات"[٥٥] وواضح هنا كذلك أن العدول هنا عن أصل يقتضيه السياق وهو ما قدره ابن الأثير فى كلامه السابق.

ونستطيع أن نتبين هذا السياق الذى تم العدول عنه كذلك فى أمثلة القسم الثالث الذى ذكره ابن الأثير من أقسام الالتفات وهو فى الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ (فاطر:٩) فالأصل الذى يقتضيه السياق هنا هو (فأثارت) وعدل عنه لغرض بلاغى وعلى هذا ورد قول تأبط شرا:

بأنى قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران[٥٦]

فأصله: (فضربتها) وعليه ورد قوله تعالى أيضا ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج: ٣١-٣٢) فقال أولا:" خر من السماء" بلفظ الماضى، ثم عطف عليه المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوى الريح به[٥٧]. وتقرير الأصل السياقى فيه (فخطفته الطير أو هوت به الريح) وهكذا فى سائر الأمثلة التى عرض لها ابن الأثير.

والمقصد من ذلك هو الخروج بنقطة هامة وهى أن العدول فى هذه الأمثلة كلها إنما هو عدول عن الأصل السياقى المقدر ؛ فالسياق هو الذى دل على العدول فى تلك الأمثلة كلها، ومن ثم يصح أن نعتبر السياق هو الأصل أو القاعدة التى تنحرف عنها الصيغة أو

تعدل عنها إلى صيغة جديدة خالفت السياق لنكتة أو غرض بلاغى تطابق به مقتضى الحال وتتحقق به المعانى الفنية المطابقة التى هى غاية البلاغة.

هذا وقد وقف ابن الأثير أمام ظاهرة العدول فى الصيغ فى مبحث أفرده لذلك سماه اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها[٥٨]

ومن أمثلة غير ما ذكره ابن الأثير ما نراه في القرآن الكريم من العدول إلى المفرد:

فمن الدلالات الفنية للعدول إلى المفرد ما جاء فى قوله تعالى فى سورة الجن﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ (الجن:٨-٩) فالحرس والرصد: اسما جمع، ومع ذلك وصف الحرس بالمفرد، وجاء الرصد وصفا لمفرد، قال الزمخشرى:" والحرس اسم مفرد فى معنى الحراس كالخدم فى معنى الخدام ولذلك وصف بشديد ولو ذهب إلى معناه لقيل شدادا، والرصد مثل الحرس اسم جمع للراصد على معنى ذوى شهاب راصدين بالرجم وهم الملائكة الذين يرجموهم بالشهب ويمنعوهم من الاستماع ويجوز أن يكون صفة للشهاب بمعنى الراصد أو كقوله ومعى جياعا يعنى يجد شهابا راصداً له ولأجله.[٥٩]

وقال الطيبى" وقوله تعالى(شهابا رصدا) نزل الواحد وهو الموصوف مترلة الجمع لوصفه به إظهارا لكمال حفظه وقول الشاعر... "ومعى جياعا" جعل كل مكان من أمكنة المعا بمترلة (معا) واحد مبالغة فى الجوع.[٦٠]

وقد ذهب الزمخشرى وجماعة من المفسرين إلى أن السر فى العدول عن الجمع إلى المفرد فى وصف الحرس أن ذلك جاء رعاية للفظ دون رعاية المعنى إذ لو روعى المعنى لقال شدادا.[٦١] والسر فى هذا العدول – فى رأيي – يرجع إلى الرمز والإشارة إلى وحدة هذا الحرس، واجتماع أمرهم، حتى كأنهم حارس واحد، فليس ثمة اختلاف بينهم ولا تفرق، ومن ثم فأى شيطان يحاول استراق السمع توجهوا إليه جميعا فيضربونه ضربة ملك واحد.

وثمة دلالة أخرى فى العدول إلى (شهاب) وهى التخصيص، حيث إن إفراد الشهاب يدل على أن كل جنى قد أعد له شهاب مختص به لا يعدوه. ويرشح لهذا المعنى لفظة (له)، ومن ثم أعرب بعضهم رصدا مفعولا لأجله.

من أمثلة العدول إلى المفرد كذلك فى القرآن الكريم توحيد النور وإفراده فى مقابل جمع الظلمات مما يمثل نوعا من العدول فى جميع مواضعه فى القرآن، حيث ورد النور مفرداً فى مقابل جمع الظلمات فى أحد عشر موضعا فى كتاب الله تعالى ولم يرد خلاف ذلك فى موضع واحد فمن ذلك ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة: ٢٥٧) وقوله

تعالى﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الأنعام:١) وقوله تعالى﴿الـر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم:١).

ففى هذه الأمثلة كلها جاءت الظلمات مجموعة ثم عدل عن هذا الجمع بإفراد النور، ويتجلى هذا العدول فى أوضح صوره فى قوله تعالى"﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾ (فاطر: ١٩-٢٢) ففى هذا الموضع يتضح للقارىء والسامع مخالفة قاعدة السياق المطردة فى الجمع بين الصيغ المتناسقة إفرادا وجمعا، ومن ثم تبدو نعمة هذا العدول متميزة تنادى بالالتفات إلى سر تلك المخالفة، وذلك العدول. ويسهل على المتدبر لهذا العدول معرفة سره والوقوف عليه، وهو وحدة سبيل النور والإيمان، وتشعب كل السبل دونه وتفرقها ومن ثم أفرد صراط الله المستقيم فى مقابل سبل الضلال، فى قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام:١٥٣) قال أبو حيان" جمعت الظلمات لاختلاف الضلالات، ووحد النور لأن الإيمان واحد[٦٢]

" وقال الألوسى" أفرد النور لوحدة الحق، كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال"[٦٣]

وقال ابن القيم" والمقصود أن طريق الحق واحد، إذ مرده إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة فإنها لا ترجع إلى شيء موجود، ولا غاية لها توصل إليها، بل هى بمنزلة ثنيات الطريق، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود. فهى وإن تنوعت فأصلها طريق واحد، لما كانت الظلمة بمنزلة طريق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق، بل هى أفرد النور وجمعت الظلمات.[٦٤]

ويلمح الألوسى وجها فى إفراد النور وجمع الظلمات، وهو الإيماء إلى قلة أتباع الحق، وكثرة أتباع الباطل، حيث ردد كلامه بين القول السابق" أو أن الأول(أى النور) إيماء إلى القلة والثانى (أى الظلمات) إلى الكثرة.[٦٥]

وهذا الذى ذكره غير معارض للقول الأول فأتباع الحق قليلون كما يقرره كتاب الله تعالى فى مواضع عديدة.

ومن أمثلته: العدول عن صيغة جمع الكثرة إلى جمع القلة:

من أمثلة العدول عن صيغة جمع الكثرة إلى جمع القلة قوله تعالى﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل:١١٢) فعلى الرغم من كثرة نعم الله التى كفرت بها تلك القرية فقد عدلت الآية عن التعبير بجمع الكثرة(نعم) إلى جمع القلة(أنعم) لغرض بلاغى يكشف عنه العلامة أبو السعود حيث يقول" وإيثار جمع القلة للإيذان بأن

كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة"[٦٦] هذا الذى نبه عليه العلامة أبو السعود هو ما يناسب مقام التخويف لهؤلاء الكافرين الجاحدين لنعم الله تعالى عليهم، ولهذه الطريقة نظائر فى كتاب الله تعالى فمنها فى غير جانب الصيغ قول إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو فى مقام تخويفه عذاب الله تعالى له﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ (مريم:٤٥) حيث عبر بـ (يمسك) بدلا من يصيبك، وبـ(الرحمن) بدلا من (الجبار) كأنه يخوفه العذاب الأدنى لو عامله الله برحمته، فكيف لو عامله بشدته وجبروته. وعلى هذا النحو جاء التخويف فى الآية السابقة من جحد قليل النعم فضلا عن كثيرها، وهذا أشد مبالغة فى التخويف.

العدول عن صيغة جمع القلة إلى جمع الكثرة

من أمثلة ذلك فى القرآن قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦١) ؛ حيث كان الأصل أن توصف السبع بجمع القلة سنبلات كما قال الله تعالى فى سورة يوسف ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ﴾ (يوسف:٤٣) إلا أن الآية هنا قد عدلت عن القلة المناسبة للسبع إلى الكثرة لغرض بلاغى لا للاتساع فى اللغة أو لتعاور الأبنية كما ذهب إليه الزمخشرى فيما نرى.

وهذا الغرض البلاغى فيما نرى إنما هو مناسبة سياق الآيات الدال على التكثير والمباركة من الله تعالى لهذه الصدقة، وإلا فقد استغرب التمثيل بسنبلة تنبت مائة حبة واستشكلوا إمكان وقوع ذلك.

والمقصود أنه مقام تكثير وبركة من الله تعالى، وجزاء واسع غير محدود ولذا ذيلت الآية بقوله تعالى﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فهى" زيادة لا تقدر ولا تحصر، فذلك العدد لا مفهوم له".

خامسا :العدول النحوي : ويشمل :

(أ)العدول في حروف المعاني

(ب) العدول الرتبي (التقديم والتأخير الرتبي) .

(ج) العدول المعنوي (التقديم والتأخير المعنوي) .

(د) العدول الضمائري (أسلوب الالتفات) .

(أ)العدول في حروف المعاني :

وهو ما يعرف في الاصطلاح بالتضمين ،أو النيابة في الحروف ؛ حيث يتم العدول عن الحرف الذي شاع استخدامه مع الفعل إلى حرف آخر ، قال ابن جنِّيٍّ :" وهو اتصال

الفعل بحرف ليس مما يتعدى به؛ لأنه في معنى فعل يتعدى به. من ذلك قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (البقرة: ١٨٧) لما كان في معنى الإفضاء عداه بـإلى "(٦٧)

وقد ذهب جماعة من المصنفين في حروف العربية ومعهم علماء الكوفة وآخرون ممن سماهم ابن قيم الجوزية (٦٨) بظاهرية النحاة إلى القول بنيابة الحروف أو بوقوع التضمين فيها ، وهذا ما نجده في العديد من كتب هذا الفن مثل " رصف المباني " للمالقي و " الجنى الداني " للمرادي ، و "مغني اللبيب " لابن هشام ، و" مصابيح المغاني " للموزعي ، ، فالفعل إذاً باقٍ على معناه المعهود ، ولم تنتقل دلالته المعنوية إلى معنى فعل آخر ، واختلاف المعنى محصور في الحرف ، إذ اكتسب معنى حرف آخر يستحق هذه التعدية.

وممّن ينحو هذا المنحى في التفسير الإمام ابن قتيبة في كتابه " تأويل مشكل القرآن " (٦٩)

أما ابن هشام في " مغني اللبيب " فقد عبّر عن هذا الباب بالمرادفة (٧٠) وأورد طائفة من الآيات على هذا المصطلح . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾(الشورى :٢٥) فيرى أن الحرف (عن) مرادف للحرف (من) فيكون المعنى :" وهو الذي يقبل التوبة من عباده " .

أما المذهب الثاني فهو الذي يُطْلق على هذه الظاهرة مصطلح " التضمين " ، (٧١) ويرى أن الفعل قد تضمّن معنى فعل آخر ، وحرف الجر مَسُوق لإتمام معنى هذا الفعل .فالتضمين عندهم : إيقاع لفظ موقع غيره ومعاملته معاملته ، لتضمنه معناه ، واشتماله عليه ، أو هو إشراب فعلٍ أو مشتقٍ أو مصدرٍ معنى فعل آخر أو مشتق أو مصدر ، ليجري مجراه في التعدي والمعنى ، مع إرادة معنى المتضمِّن،والغرض منه إعطاء مجموع المعنيين ، وذلك أقوى من إعطاء معنى واحد . ويجري على التضمين بهذه الدلالة كثير من أفعال القرآن الكريم . ومن ذلك قوله تعالى :﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (البقرة :١٨٧) "فتضمين الرفث وهو مقدمات المباشرة أو المباشرة ذاتها معنى الإفضاء ، والمتعدى بـ " إلى " ، يمنح العلاقة بين الزوجين لمسة إنسانية تترفع بها عن عالم الحيوان ، لمسة حانية ، فيها من الرفق والنداوة والشفافية مثلما فيها من سمو المشاعر ، وتحسر (إلى) هذه عن مسافر وجهها الجميل لتحكي ما اشتملت عليه المشاعر حين جمعت الرفث إلى الإفضاء فيما أحل الله للزوجين في شهر الصيام لتنأى بهما عن عرام الجسد ، والحبس في الرغبات

المكبوتة في اللحم والدم بعد أن تستتبع خلفها معنى الستر يتدثر به كل مـن الـزوجين ، وتتصل بأفق أرفع من الأرض وبغاية أسمى من اللذة ، ترقّ وترْقى إلى معـارج عليـا .... وحَسبُ التضمين أنه جعل في لفظ الرفث نداوة يخضرّ بها ، ويرمي ظلاله ، ولمسة رفافـة تنأى عن عرام الجسد تبتغي الإعفاف والإنجاب ، وتوقظ معنى الستر في هذا الحرف " إلى " ،فجمع من صنوف البيان ما ذاع صيته على كل لسان"[٧٢]

وأحب أن أوضح أن الرفث إلى النساء هنا ليس مرادفا للإفضاء إليهن ؛بل مقتضى التضمين أنك ضممت إلى معنى الرفث معنى الإفضاء و لم تلغ دلالة الرفث ، وإلا فلماذا ذكر لفـظ الرفث أصلا إن كانت دلالته هدرا ؟! ولماذا لم يستبدل بالإفضاء إن كان هـو المقـصود وحده ؟!

ولكن الحق أن المزية والغرض الذي يرجع إليه التضمين هي كما قال الزمخشري ابن هـشام وغيرهما : "إعطاء مجموع معنيين ،وذلك أقوى من إعطاء معنى فذّ "[٧٣]

وانتصر كثيرون لنظرية التضمين في الأفعال لا الحروف ، ومنهم ابـن العـربي الإشـبيلي[٧٤] وابن هشام ، مع أنه خرَّج كثيراً من الشواهد على طريقة تـضمين الحـروف،[٧٥] وكذلك الحافظ السيوطي [٧٦]

موقف المفسرين :

انتصر كثير من المفسرين لنظرية التضمين في الأفعال لا الحروف، ومنهم :

الزمخشري فيما سبق نقله عنه آنفا [٧٧]

والإمام الطبري :

وذلك في كلامه على قوله تعالى:﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّـا وَإِذَا خَلَـوْا إِلَـى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(البقرة:١٤)

حيث اختار أن " ذلك بمعنى: وإذا لَقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا صَرفوا خلاءهم إلى شياطينهم – فيزعم أن الجالب لِـ "إلى"، المعنى الذي دلّ عليه الكلامُ: من انـصرافِ المنافقين عن لقاء المؤمنين إلى شياطينهم خالين بهم...وهذا القول عندي أولى بالصواب، لأن لكل حرف من حُرُوف المعاني وجهًا هو به أولى من غيره فلا يصلح تحويل ذلـك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها. ولِـ "إلى" في كل موضع دخلت من الكـلام حُكْم، وغيرُ جائز سلبُها معانِيَها في أماكنها".[٧٨]

موقف ابن تيمية :

ذهب الإمام ابن تيمية مذهب التضمين فقال :

"الْعَرَبُ تُضَمِّنُ الْفِعْلَ مَعْنَى الْفِعْلِ وَتُعَدِّيه تَعْدِيَتَهُ وَمِنْ هُنَا غَلِطَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْحُرُوف تَقُومُ مَقَامَ بَعْضٍ كَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْله : ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ (ص :٢٤) وَ { مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ } أَيْ مَعَ اللَّهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ وَالتَّحْقِيقُ مَا قَالَهُ نُحَاةُ الْبَصْرَة مِنْ التَّضْمِين فَسُؤَالُ النَّعْجَة يَتَضَمَّنُ جَمْعَهَا وَضَمَّهَا إِلَى نِعَاجِه وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } ضُمِّنَ مَعْنَى يُزِيغُونَكَ وَيَصُدُّونَك وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : { وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } ضُمِّنَ مَعْنَى نَجَّيْنَاهُ وَخَلَّصْنَاهُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : { يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ } ضُمِّنَ يُرْوَى بِهَا وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ ".[٧٩]

موقف ابن كثير :

كذلك فقد ذهب ابن كثير مذهب شيخه ابن تيمية في التضمين فقال في تفسير في قوله تعالى :{ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ } :"فيه تضمين دل عليه حرف "الباء" ، كأنه مُقَدر: يستعجل سائل بعذاب واقع. كقوله: { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ } أي: وعذابه واقع لا محالة.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد في قوله: تعالى { سَأَلَ سَائِلٌ } دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة، قال: وهو قولهم: { اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال: ٣٢][٨٠].

موقف البيضاوي :

وبيَّن البيضاوي أن سبب التعدية بـ"{عَنْ} لتضمنه معنى الإعراض أو يصدون عن أمره"[٨١]

موقف الطاهر بن عاشور :

حيث ذهب إلى تضمين الفعل { سأل } في قوله تعالى : "سأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ" فقال: "ومن بلاغة القرآن تعدية { سأل } بالباء ليصلح الفعل لمعنى الاستفهام والدعاء والاستعجال"(٨٢)

هذا ؛ وقد أوردت هنا بعض النماذج من أقوال بعض أهل العلم الذين ذهبوا إلى القول بالتضمين دون النيابة في الحروف لما اتضح لي أنه هو الراجح ؛ وقد سبق عزو هذا المذهب لأصحابه ، وإيراد بعض حججهم ، وليس المقام مقام بسط تلك الحجج كاملة ؛ وإنما يرجع إليها في مظانها التي أشرت إليها .

وأيًّا ما كان هو الراجح والصواب من القولين فإن محلَّ الشاهد في ذلك كلّه هو ما يقع من العدول عن الحرف الشائع استخدامه مع الفعل – وفق قاعدة النظام اللغوي- إلى غيره ،

سواء كان ذلك بناء على القول بتعاقب الحروف أم بناء على القول بتضمين الأفعال ؛ لأن المحصلة واحدة ، وهي وقوع العدول لغرض بلاغي .

(أ) العدول الرتبي (التقديم والتأخير الرتبي) .

(ب) العدول المعنوي (التقديم والتأخير المعنوي) .

وقد بينت في بحث سابق لي[٨٣] أن عبد القاهر يقسم التقدم إلى وجهين ، وذلك بمراعاة المرتبة النحوية للمقدم ، ونية المتكلم في إبقاء المقدم على حكمه من حيث التأخير ، أو تحويله عنه ؛ فمن ثم ينقسم قسمين :

١- **تقديم على نية التأخير** : وذلك مثل قولك : (ضربَ عمراً زيدٌ) فالمفعول به مقدم ولكنه باق على حكمه وهو التأخر عن فاعله ؛ فلذا يقال فيه : مقدم على نية التأخير .

ومنه في القرآن قوله تعالى: " وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ " (البقرة :١٢٤)

ومنه قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ " (المائدة :٦٩)

٢- **تقديم لا على نية التأخير** : و ذلك مثل قولك : (زيد ضربته) بدلا من قولك :(ضربت زيدا) حيث أردت بتقديمه تحويله من موقع المفعولية إلى موقع الابتداء .

ومنه في القرآن قوله تعالى: " إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى" (البقرة : ١٢٠)

مع قوله تعالى :" إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ " (آل عمران :٧٣)

وقد تكلمت ثمة على كلا النوعين وبينت ما فيه من وجوه البلاغة في سرِّ العدول عن تقديم النصارى إلى تقدم (الصابئون) في هذا الموضع ، وغيره من المواضع المشتركة مع هذه الآية في المعنى.

كما بينت هنالك كذلك سرَّ العدول بالتقدم والتأخير بين الآيتين :

" إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى" (البقرة : ١٢٠)

" إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ " (آل عمران :٧٣)

(د) العدول الضمائري (أسلوب الالتفات) :

يعد أسلوب الالتفات أقرب شيء إلى نظرية العدول السياقي عند ريفاتير ، وقد أولاه البلاغيون العرب عناية كبيرة ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك .(٨٤)

فقد ذكره ابن الأثير فقال :"حقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة، لأنه ينتقل فيه عن صيغة،كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر.أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض،أو غير ذلك."[٨٥]

وعرفه الطيبي بأنه " الانتقال من إحدى الصيغ الثلاث : أعني : الحكاية والخطاب و الغيبة إلى الأخرى منها لمفهوم واحد ، رعاية لنكتة ."[٨٦]

فالالتفات هو نوع من العدول يؤتى به لإحداث ظاهرة أسلوبية لافتة تهدف إلى إحداث نوع من التأثير في المخاطب لإشعاره بجماليات التعبير ومناسبته لسياقه ؛ وذلك لأن ما ذهب إليه ريفاتير من نظرية العدول السياقي لا يمكن تطبيقه هنا على أساس أنه خروج على ما يقتضيه السياق في الحقيقة ؛ وذلك لأن السياق الحقيقي لا يراد به السياق الظاهر الذي قد ينخدع به غير المتخصص في معرفة الأساليب اللغوية ، وإنما يراد به السياق الحقيقي الذي يفهمه المتعمق في فهم أسرار الكلام البليغ ومقاصده ، وأشبه شيء بذلك على نحو ما مثلنا به من قبل إنما هو ظاهرة الالتفات في البلاغة العربية ،ولذا فقد عدها البلاغيون من أمثلة الخروج على مقتضى الظاهر ، فالبليغ إنما يترك مراعاة ظاهر السياق ليراعي في الحقيقة السياق الحقيقي الذي هو جدير بالمراعاة ؛ فالخروج من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى :﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ في سورة الفاتحة إنما ترك ظاهر السياق في التزام التعبير بالغيبة مراعاة للسياق الحقيقي ، أو السياق الجديد – على رأي ريفاتير – وهو حال الإقبال على الله ، والتعرف عليه ، واستحضار عظمته ، وذلك بعد تأمل العبد فيما مرَّ عليه من صفات ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[٨٧]

ومن البلاغيين من وسع من دائرة الالتفات فأدخل فيه العدول في الصيغ [٨٨] ، وقد سبق الحديث عنه .

وأما الالتفات في الضمائر فقد أشبعه البلاغيون بحثا قديما وحديثا ، ولذلك فقد اكتفينا بالمثال الذي أوردناه له من سورة الفاتحة فيما يمكن أن نسميه بالالتفات أو العدول عن النسق القريب ، لنفسح المجال للحديث عن نوع آخر أهمله البلاغيون ، وهو ما يمكن أن نسميه :

الالتفات أو العدول عن النسق أو السياق البعيد :وهو ما سوف أعرض هنا بعض أمثلته في القرآن الكريم .

فمن العدول في الضمائر ما يمثل خروجا على النسق القرآني بأكمله ، إذا ما نظرنا إلى ذلك النسق على أنه سياق واحد متصل ، وهي نظرة قد التفت إليها البقاعي في نظم الدرر ، وغيره ممن سار على هديه .

وقد استوقفني في ذلك نسق القرآن في تعبيره عن الذات العلية في القرآن الكريم ؛ حيث يكثر فيه التعبير بضميري التعظيم (نا) و(نحن) في أغلب سياقاته بما يشبه الأصل ، غير أنه قد وقع العدول عن ذلك بالتعبير بـ(أنا) و(تاء الفاعل) أو (ياء المتكلم) في العديد من المواضع لأغراض بلاغية ، وسوف أكتفي هنا بالتمثيل بما ورد في القرآن من التعبير بـ(تاء الفاعل):

تاء الفاعل المتكلم المعبرة عن الذات العلية في القرآن الكريم :

وردت هذه التاء في القرآن الكريم في المواضع التالية:

قوله تعالى:﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ البقرة الآية : ٤٧، والآية : ١٢٢ .

وقوله تعالى:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ المائدة . الآية : ٣ .

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (المائدة ١٠٩).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (المائدة ، آية١١١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾الرعد :٣٢.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ الحجر.

وقوله تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ الكهف.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ مريم .

وقوله تعالي: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾ طه .

وقوله تعالي: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) ﴾ طه.

وقوله تعالى :﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) ﴾ طه.

وقوله تعالي: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥)﴾ الحج.

وقوله تعالى:﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(٤٧)وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)﴾الحج.

وقوله تعالي: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)﴾ فاطر.

﴿ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ ص

وقوله تعالي: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ ص.

وقوله تعالي: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَنْ يَعْشُ

عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) ﴾ الزخرف.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ الذاريات.

وقوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)﴾ المدثر.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) ﴾ الليل.

مقامات تاء الفاعل المتكلم المعبرة عن الذات العلية في القرآن الكريم :

من خلال تأمل تلك المواضع التي وردت فيها هذه التاء نستطيع أن نتبين سمة مشتركة بين المقامات أو السياقات التي وردت فيها هذه التاء، وهذه السمة المشتركة بين تلك المقامات هي :

فعل الله وتصرفه بعباده نوعا من التصرف يظهر فعلا من أفعال الحق سبحانه وتعالى فيه مزيد عناية وولاية ،أو مزيد تصرف وتدبير وذلك باشتماله :

إما على اختصاص الله بعض عباده وامتنانه عليهم بمزيد عناية وولاية بفعل فيه لطف وحسن صنيع ، أو لنفي هذا الاختصاص.

وإما علي اختصاص الله بعضهم بمزيد استهزاء واستدراج إلي إهلاكهم بفعل عجيب فيه تصرف وتدبير ومكر بالماكرين.

وإما علي فعل له سبحانه فيه صنع عجيب أو حدث عظيم.

وإما لإثبات وعيد شديد أو كيد أكيد منه سبحانه للكافرين.

ونستطيع أن نلمح المقام الأول وهو الاختصاص بمزيد العناية والولاية في الآيات التالية:

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة الآية ٤٧والآيه١٢٢ .

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ المائدة الآية ٣ .

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ

وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (المائدة ١٠٩) .

وقوله تعالي: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (المائدة آية١١١) .

وقوله تعالي: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾ طه .

وقوله تعالي: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) ﴾ طه .

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) ﴾ طه .

وقوله تعالي: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ الحجر .

وقوله تعالي: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ ص .

وقوله تعالي: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ ص .

وقوله تعالي: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ الكهف .

ففي الآيتين من سورة البقرة : اختصاص بني إسرائيل بإنعام الله عليهم وتفضلهم علي العالمين في زمانهم مما فيه من مزيد عناية وولاية واقتضى حالهم الامتنان عليهم وتذكيرهم بها.

وفي آية المائدة (اليوم أكملت لكم دينكم ...) : اختصاص المسلمين بنعمة إكمال الدين ،وإتمام النعمة، واصطفائهم للدين الذي رضيه الله تعالى واختارهم له فجاءت هذه الأفعال مقترنة بتلك التاء في (أكملت - أتممت - رضيت).

وكذلك امتنانه سبحانه على عيسي في قوله تعالى (اذكر نعمتي عليك وعلـى والـدتك إذ أيدتك بروح القدس......وإذ علمتك.....وإذ كففت).
حيث نرى إنعام الله عليه واختصاصه إياه بنعمة التأييد والتعليم وكفّ أذى أعدائه عنه.
وكذلك امتنان الله تعالى على الحواريين في اختصاصهم بما أوحاه إليهم مـن الإيمـان بـه وبرسوله.
وفي آيات سورة طه نلمح هذه الأفعال التي تدل علي اختصاص الله تعالى موسـى بمزيـد العناية والرعاية والمحبة والاصطفاء والولاية (وأنا اخترتك- ألقيـت عليـك محبـة مـني- اصطنعتك لنفسي)
ونلحظ اجتماع الضميرين (أنا والتاء) في اختيار الله تعالي لموسى (وأنا اخترتك) للامتنـان والتنويه بعظمة رب العزة جل وعلا في اختياره لموسى عليه السلام.
أما آيات سورة (ص) فقد وردت الأفعال فيها مقترنة بتاء فاعل المتكلم (خلقت بيـدي- سويته-ونفخت فيه من روحي)دالة علي تكريم الله تعالي لآدم عليه السلام واصطفائه إياه.
نلمح ذلك في تأكيد الفعل (خلقت) بما بعده (بيدي) .
هذه الأفعال تدل كذلك على المقام الثالث وهو الدلالة على فعل لله تعالي فيه صنع عجيب أو حدث عظيم . وأي حدث أعظم، وأي صنع أعجب من خلق الإنسان وتسويته بيديـه سبحانه ونفخه فيه من روحه؟!
وقد جاء فعل الخلق مقترنا بتاء الفاعل كذلك في آية الذاريات ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون))وآيات المدثر ((ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت.......الآيات)).
أما المقام الثاني وهو الاختصاص بالاستدراج للإهلاك بنوع عجيب وهو الكيد والتـدبير، فهو ما نلمحه في هذه الآيات :
قوله تعالي :
﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَـابِ﴾ الرعد :٣٢ .
وقوله تعالي: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَـصِيرُ (٤٨)﴾ الحج.
وقوله تعالي: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِـالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴾ فاطر .
وقوله تعالي: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَـاءَهُمُ الْحَـقُّ وَرَسُـولٌ مُـبِينٌ (٢٩)﴾ الزخرف.

وقوله تعالي: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) ﴾ المدثر .

ففي الآية الأولي: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾

نلمح الربط بين استهزاء الكافرين بالرسل وعجيب صنع الله تعالي واستهزائه بهم في المقابل باستدراجه إياهم إلي الهلاك بإملائه لهم ثم أخذهم أخذا وبيلا يستحق التعجب منه ومن حسن الصنع والتدبير فيه (فكيف كان عقاب؟!).

ونلاحظ التشابه الكبير بين آية الرعد وآية الحج ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ الحج : ٤٨ ؛ حيث نجد الطريقة نفسها الإملاء والاستدراج ثم الأخذ للظالمين (أمليت لها ....ثم أخذتها).

ولعل من المفيد أن نعقد هنا نوعا من المقارنة بين هذه الآية في سورة الحج والآية السابقة عليها في السورة نفسها.

في قوله تعالي:

﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾

حيث نلمح أن الفعل (أهلكناها)جاء مسندا إليه ضمير (نا) الفاعل وليس التاء.

أما في الآية الأخرى حيث ذكر الإملاء نجد أن الإملاء والأخذ جاء مقترنا بالتاء، وذلك لأنه ظهر لي من خلال تتبع أساليب القرآن في ذلك وتتبع المقامات الواردة في تلك الأساليب أن التاء إنما تأتي مع الفعل الذي يدل علي تصرف وتدبير وصنع عجيب أما (نا) فتأتي حيث يراد تعظيم الفعل وتضخيمه وتهويله فحيث أراد سبحانه الدلالة على التدبير والتصرف جاءت التاء التي تبين لي من خلال الاستقراء أنها تدل على ماله مزيد اختصاص بصفاته العجيبة سبحانه وتعالي، وهذا هو ما نلمحه من الأفعال الواردة في السياقات المختلفة الدالة علي صفاته العجيبة في (اصطنعتك لنفسي) حيث جاء اصطناع موسى واصطفاءه عجيبا فقد رباه الله تعالي في بيت عدوه يغذوه ويكسوه ويتخذونه ولدا، وفي ذلك أعجب العجب لقدرة الله تعالي ولطيف صنعه وتدبيره.

هذا الصنع والتدبير قد يكون بالعناية والرعاية لأوليائه كما في المقام السابق، وقد يكون بالاستدراج والإهلاك لأعدائه كما في تلك الآيات الواردة في هذا المقام والمشتملة على هذه الأفعال (أمليت – أخذت – متعت – جعلت ومهدت).

وهذا ما نلمحه كذلك في قوله تعالي :
﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ(٢٩) ﴾ الزخرف.
وسياق الآيات إنما تدل على أن هذا التمتيع إنما هو استدراج من الله تعالي ولهذا جاء بعد هذه الآية :
﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ(٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(٣٩)﴾ الزخرف.
حيث يتضح لنا عجيب صنع الله تعالي في تمتيعهم استدراجا لهم، وكيف أنه سبحانه وتعالي رفع بعضهم درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ؟ -
وكيف أنه لولا أن يكفر الناس جميعا لمتعهم أكثر من ذلك ؟
وكيف أنه جعل لهم شيطانا قرينا يصدهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون؟
كل ذلك استدراجا لهم إلى العذاب لما كذبوا وسخروا واستهزءوا برسله تعالي؛ فلذا قال في نهاية هذا السياق سياق الاستدراج- ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(٣٩)﴾ الزخرف.
كما نلمح ذلك الاستدراج كذلك في قوله تعالي:
﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)﴾ المدثر .
حيث نلمح هذا التمتيع للكافر استدراجا له، والآيات هنا تفصل طريقة ذلك التمتيع بقوله تعالي: ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا... ﴾ وتبين نهاية ذلك بما يكشف أنه كان نوعا من التدبير والاستدراج إلي ذلك العذاب الأبدي الأليم (سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا).

وفي المقام الرابع وهو مقام الفعل المشتمل علي تهديد ووعيد شديد نجد هذه الآية الكريمة : ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ .

حيث نلمح عظم هذا الإنذار لكونه إنذارا بهذه النار العظيمة الفظيعة التي عظم لهيبها ولظاها إلي درجة بعيدة فوصفها بأنها تتلظى.

ومن خلال تلك المقامات السابق عرضها نلمح القاسم المشترك في ورود تاء الفاعل المتكلم سبحانه في هذه المقامات جميعا ألا وهو الدلالة على ما يختص به سبحانه من فعل عجيب، إما لما فيه من لطف بأوليائه أو لما فيه من الاستدراج لأعدائه أو تعظيم فعله سبحانه المتعلق بأمر عظيم من أسرار ذلك الإعجاز الأسلوبي والبياني الخالد،مما يفسر لنا سرّ ذلك العدول عن الضمير الشائع استعماله في سياق القرآن الكريم ، وهو (نا) و(نحن)، خاتمة :ومن خلال ما سبق عرضه من أمثلة العدول في القرآن الكريم على جميع مستويات اللغة – المعجمية والصوتية والصرفية والنحوية – نتبين قيمة العدول في تحقيق بلاغة هذا الكتاب الكريم وفنيته وإعجازه الخالد ، والحمد لله رب العالمين.

---

* **هوامش البحث ومصادره ومراجعه:**

1 – أستاذ البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن المساعد – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

2 – انظر د/ عبد السلام المسدي – الأسلوبية والأسلوب – الدار العربية للكتاب – تونس ١٩٧٧ ص ٥٧.أنبِّه أنني أذكر هنا بيانات المصدر أو المرجع كاملة عند المرَّة الأولى ،دون ما بعدها مستغنيا بذلك عن إيراد قائمة أخرى ببيانات المصادر والمراجع.

3 – انظر/ برند شبلنر/ علم اللغة والدراسات الأدبية دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النصى، ترجمه وقدم له وعلق عليه د/ محمد جاد الرب/ كلية الآداب جامعة الملك سعود بالرياض ط١ س١٩٨٧ نشر الدار الفنية بالقاهرة ص ٨١.

4 انظر د/ أحمد درويش – النص البلاغى فى التراث العربي والأدبي – ط مكتبة النصر – داخل جامعة القاهرة، مقال فى الأسلوب – جورج بوفون ص ١٨٩-١٩٤، وانظر مقالة بعنوان الأسلوب والأسلوبية، فى فصول١/٨٤، ص ٦٠.

5 الهامش السابق ص٩٥-٩٦.

6 السابق.

7 د/ حسن طبل – أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية – ط دار الفكر العربي – ١٩٩٨م – ص ٤٤.

8 د/ فتح الله سليمان– الأسلوبية– مدخل نظري ودراسة تطبيقية– ط الدار الفنية للنشر والتوزيع – ص ١٩.

9 د/ صلاح فضل علم الأسلوب / مؤسسة مختار للنشر والتوزيع بالقاهرة – ص ١٧٩.

10 برند شبلنر علم اللغة ص ٦١.

11 د/ شفيع السيد –اتجاهات البحث الأسلوبي – مكتبة الشباب – جامعة القاهرة – ص ١٣٨.

12 انظر المسدى الأسلوبية والأسلوب ص ٩٨.

13 المجاز هنا هو مصطلح أبي عبيدة فى كتابه مجاز القرآن وهو أوسع من الدلالة التى استقر عليهـا مـصطلح المجـاز فى الدراسات البلاغية ؛وإلا فإن مجرد استخدام الصور البيانية لا يعدو كونه ضربا في من الاختيار في إطار المستوى الفني للكلام.

14 انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى- تحقيق د/ محمد فؤاد سزكين ط الرسالة ١٩٨١م٩/١، البرهان فى وجوه البيان لابن وهب الكاتب : أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان – تحقيق حفنى محمد شرف – القاهره : مكتبـه الشباب، ١٩٦٩ –ص ١٥٣، الفروق لأبي هلال العسكرى ص ١٩٠، إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٧٣، ٢٧٤ المثـل السائر لضياء الدين بن الأثير /تحقيق: د.بدوي طبانة. ود. أحمد الحوفي/ ط دار نهضة مصر–الفجالة–القـاهرة. ٢/١٦٧، ١٦٩، ٢٤١، ٢٤٦ ، الكشاف للزمخشرى – ط دار المعرفة – بيروت ٢/١٨٦، ٣/٢٠، مفتاح العلوم للـسكاكى ص ١٠٦ (المطبعة الأدبية)، الإيضاح للخطيب القزوينى بتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجى- دار الكتاب اللبنانى- بيرت ص ١٥٧، يحيى العلوي – الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز- مطبعة المقتطف بمصر- ١٣٣٣هـ- ١٩١٤م – ٢/١٣١-١٣٢ –١٣٥ –١٣٦ ١٣٧، التبيان للطيبى ٢/٣٤٧ بتحقيق / عبد الحميد هنداوى ط المكتبة التجاريـة بمكـة، شروح التلخيص ١/٤٦٣ ٤٦٧ الخصائص لأبي الفتح بن جني / تح محمد على النجار / دار الكتب المصرية : ١٣٧١هـ – ١/ ٢١٤ – ٢١٥ – ٤١١، ٣/١٨٨ ٢٦٧، د/ أحمد مطلوب – معجم المصطلحات البلاغية وتطورها- ط المجمع العلمى العراقى- ١٩٨٣م. ص ٢٩٦.

15 انظر المسدى – الأسلوبية ص ٩٤.

16 (ابن جنى ٢/٣٩٢)

17 علم الأسلوب ص ١٨٣.

18 انظر برند شلبنر علم اللغة ص ٦٩.

19 انظر علم اللغة ص ٧٠.

20 انظر صلاح فضل – علم الأسلوب/ مؤسسة مختار للنشر والتوزيع بالقاهرة – ص ١٨٥.

21 انظر د/ حسن طبل – أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية – ط جامعة القاهرة – ص ٤٤، ٤٥ برند شبلنر علم اللغة ص ٦٩، الأسلوبية والأسلوب ص ٩٩،د/ محمد شفيع الدين السيد – اتجاهات البحث الأسلوبى – ط مكتبة الشباب – جامعة القاهرة – ص ١٥٥، ١٦٩، د/ عبد الحكيم راضي نظرية اللغة فى النقد العربى/ مكتبة الخانجى القاهرة –١٩٨٠م ٤٩٣،٤٨٩.

22 انظر د/ صلاح فضل علم الأسلوب ص ١٨٣.

23 انظر علم الأسلوب ص ١٨٥،علم اللغة ص ٧٣.

24 انظر علم الأسلوب ص ١٨٤ وانظر برند شبلنر علم اللغة ص ٦٩.

25 انظر علم الأسلوب ص ١٨٥.

26 انظر علم الأسلوب ص ١٨٥ ١٨٦، وانظر أيضا برند شبلنر ص ٧٢.

27 انظر علم الأسلوب ص ١٩٢.

28 ~~انظر علم الأسلوب ص ١٩٣~~

29 نظرية اللغة فى النقد العربى ٢٤٩ ٢٥٠ وأسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية د/ حسن طبل ص ٤٦، ٥٢.

30 انظر علم الأسلوب ص ١٩٣، ١٩٤.

31 انظر أسلوب الالتفات ص ٥٧، اللغة والإبداع ص ٩٢، علم الأسلوب ص ١٩٦، اتجاهات البحث الأسلوبي ص١٥٠.

32 اللغة والإبداع ص ٩٢.

33 انظر علم الأسلوب ص ١٩٦، اللغة والإبداع ص ٩٢.

34 انظر علم الأسلوب ص ١٩٤ .

35 انظر علم الأسلوب ص ٢٠٢.

36 انظر علم الأسلوب ص ٢٠٢، ٢٠٣.

37 انظر علم الأسلوب ص ١٩٣، ١٩٤.

38 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - (ج ١ / ص ٥٣)

39 ينظر : تفسير الرازي (فخر الدين محمد بن عمر): تفسيره مفاتيح الغيب - ط دار الفكر العربي - ١٣/١

40 سنن البيهقي الكبرى – ط دار المعرفة – بيروت - ٩/ ١٦٥ ، صحيح ابن حبان- ط المكتب الإسلامي – الأردن - ٥١/١٥

41 تفسير روح المعاني ، للألوسي ، دار إحياء التراث العربي - ١/ ١٠٥ - ١٠٦

42 ينظر " تفسير الكشاف :٧٤/١ ، وتفسير ابن كثير - ط المكتبة التوفيقية- مصر ١ / ٧٤ ، وينظر : تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، المطبعة الخيرية بمصر ١٣٣٠، طبعة مصورة - ١ / ٩٦ ، وفتح/ الباري – ط الريان – مصر- ٥٠٥/١٣ .

43 ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود الحنفي / تح عبد القادر عطا / مكتبة الرياض - ١٨/١

44 مجاز القرآن ج١٥١/٢.

45 انظر السابق ص ٩ وانظر الكامل ٢٢/٣، ٥٦/٢.

46 الكشاف ١٠/١.

(47)ضياء الدين بن الأثير /المثل السائر /تحقيق: د.بدوي طبانة. ود. أحمد الحوفي/ ط دار نهضة مصر-الفجالة-القاهرة. ٢٤١/٢-٢٤٧ انظر الفصل الخاص بين الصيغة والمعنى في الباب الأول من الرسالة.

48 الطيبي : شرف الدين الحسين بن محمد الطيبي – مخطوط - رسالة دكتوراة – كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر- تحقيق ودراسة : د عبد الستار مبروك زموط -١٣٧٩هـ - ١٩٧٧- م - ١٣/٢.

49 ينظر الفارق بين المادتين في لسان العرب (ربب) ، (أله)

50 ينظر في ذلك ما ورد في الكشاف والألوسي والتحرير والتنوير وغيرها في الكلام على متعلق الجار والمجرور في البسملة ؛ حيث قدره بعضهم بسم الله أستعين ، أو أبتدئ ، أو أقرأ ..الخ ، ومنهم من قدر المتعلق اسما .

51 الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله - الحجة في القراءات السبع - دار الشروق – بيروت - الطبعة الرابعة ، ١٤٠١- تحقيق : د. عبد العال سالم مكرم - (ج ١ / ص ٢٧٢) جاء فيه :"قوله تعالى وكشفت عن ساقيها قرأه الأئمة بإرسال الألف إلا ما قرأه ابن كثير بالهمز مكان الألف وله في ذلك وجهان أحدهما أن العرب تشبه مالا يهمز بما يهمز فتهمزه تشبيها به كقولهم حلأت السويق وإنما أصله في قولهم حلأت الإبل عن الحوض إذا منعتها من الشرب والآخر أن العرب تبدل من الهمز حروف المد واللين فأبدل ابن كثير من حروف المد واللين همزة تشبيها بذلك فأما همزه في صاد

لقوله بالسوق فقيل كان أصله سؤوق على ما يجب في جمع فعل فلما اجتمع واوان الأولى مضمومة همزها واحتزأ بها من الثانية فحذفها"

52 النمل: ٤٤.

53 المثل السائر ١٦٨/٢.

54 المثل السائر ص ١٧٩-١٨٠.

55 المثل السائر ص ١٨٠.

56 السابق

57 المثل السائر ص ١٨٣-١٨٤.

58 المثل السائر ٢٩٣/١ وتبعه فيه الطيبي ٥٠٠/٢-٥٠٣.

59 انظر الكشاف ١٤٦/٤.

60 انظر التبيان للطيبي ١٥٣/١.

61 انظر الكشاف السابق - الرازي ٧٦٩/١٥ الألوسي ٨٦/٢٩- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي / تح د. أحمد الخراط / دار القلم دمشق: ١٤٠٦هـ - ٣٩٢/٦، القرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم، ط دار الحديث - ٦٨٠٤/١٠.

62 انظر البحر المحيط، لأبي حيان، دار الفكر، بيروت - ٢٨٣/٢.

63 روح المعاني ١٤/٣.

64 انظر ابن القيم (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر) بدائع الفوائد - ط / دار الفكر - ١١٩/١.

65 انظر روح المعاني - السابق.

66 انظر تفسير أبي السعود ١٤٥/٥.

(67) وهو من شواهد ظاهرة التضمين ، وإن لم يسمها ابن جني بذلك - الخصائص - (ج ١ / ص ٢٢٦)

(68) بدائع الفوائد :٩٢٠

(69) تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - ط مؤسسة الرسالة - ٥٦٧

(70) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب / ابن هشام / المكتبة العصرية / صيدا ١٩٨٧م -١٤٨/١

(71) التضمين في الأفعال هو مذهب البصريين و يقابله عند الكوفيين تناوب الحروف ، أو التضمين فيها ،وقد ذهب إليه ابن عربي الإشبيلي والزمخشري وابن هشام وأبو البقاء الكفوي وكذلك الحافظ السيوطي فيما سيأتي ذكره عنهم وعن غيرهم ،وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمة في أصول التفسير مذهب التضمين . ورجحه من المعاصرين كثير منهم الشيخ محمد الخضر حسين في دراسات في العربية وتاريخها ،وأحمد حسن حامد في كتابه (التضمين في العربية-بحث في البلاغة والنحو) ، و د/ محمد نديم فاضل في كتابه (التضمين النحوي في القرآن الكريم)،كذلك فقد رجح مذهب التضمين حسن عزام في كتابه : غاية المأمول في الفعل الواصل وأسرار الموصول ،المطبوع بالإسكندرية سنة ١٣٥٤هـ

(72) د/ محمد نديم فاضل (التضمين النحوي في القرآن الكريم) طبع ونشر مكتبة دار الزمان- بالمدينة المنورة ٣٦٧/١

(73) الكشاف :٢٥٧

(74) الجصاص أحمد بن علي المكني بأبي بكر الرازي الجصاص الحنفي - أحكام القرآن - ط دار التراث العربي بيروت - ١٤١٢هـ ١/١٧٧

(75) مغني اللبيب : ٢/٧٦٢

(76) السيوطي - معترك الأقران في إعجاز القرآن ضبطه أحمد شمس الدين - ط دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٨ م - ص ٣٩٨

(77) الكشاف :٢٥٧

(78) تفسير الطبري - (ج ١ / ص ١٩٩)

(79) مجموع فتاوى ابن تيمية - ط مكتبة الرحمة - ط مصورة - القاهرة (ج ٣ / ص ١٩٣)

(80) تفسير ابن كثير - (ج ٨ / ص ٢٢٠

(81) ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي - تفسير البيضاوي -أنوار التنزيل وأسرار التأويل - ط دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٩ م - (ج ٤ / ص ٣٩١).

(82) محمد الطاهر بن عاشور - التحرير والتنوير - ط الدار التونسية ١/٤٠٤ - (ج ١٥ / ص ٣٠٥)

83 ينظر : بحث : متشابه التقديم والتأخير في القرآن الكريم - دراسة بلاغية - د/ عبد الحميد هنداوي - بحث منشور - مجلة كلية الآداب - جامعة المنوفية - ع ديسمبر ٢٠٠٨م.

(84) راجع ما أسلفناه في مقدمة البحث عن العدول فى التراث البلاغى ، وانظر نظرية اللغة فى النقد العــربى ٢٤٩ ٢٥٠ وأسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية د/ حسن طبل د/ حسن طبل - أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية - ط دار الفكر العربي - ١٩٩٨م- ص ٤٦، ٥٢.

85 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - (ج ١ / ص ١٤٨)

86 الطيبي - التبيان - ١٥٨

87 الطيبي - التبيان - ١٥٨

88 د/ حسن طبل - أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية - ط دار الفكر العربي - ١٩٩٨م- ص ٤٦، ٥٢.

التوظيف الفني للعدول في النص القرآني

دراسة أسلوبية بلاغية

أ.د/عبد الحميد هنداوي ([1])

يشتمل البحث على :

تمهيد : حول توظيف المنهج الأسلوبي في دراسة النص القرآني ، وسبب الاهتمام بالعدول في النص القرآني باعتباره واحدا من أهم السمات الأسلوبية التي يتميز بها أسلوب هذا الكتاب الكريم ، وقد عُرِّفت الأسلوبية – في أحد تعريفاتها – بالعدول ؛ ومن ثم عرض البحث لتلك التعريفات.

ثم عرض البحث بعد ذلك للقاعدة التي يتم العدول عنها فقد اختلف الأسلوبيون حول النمط أو المعيار أو القاعدة التي يحدث العدول عنها على عدة أقوال ، عرض لها البحث وناقشها ، وبين الراجح منها.

ومن ثم قام البحث بغربلة هذا المنهج الأسلوبي قبل إعماله في النص القرآني ، وبين في الوقت نفسه جذوره عند البلاغيين العرب؛ بحيث نكون على بينة مما نأخذ منه أو نذر مما يلائم طبيعة هذا الكتاب المقدس.

ثم عرض البحث لصور وأنماط العدول في القرآن الكريم كالتالي:

١– العدول المعجمي

٢– العدول الصوتي

٣– العدول الصرفي

٤– العدول النحوي : ويشمل :

(أ)العدول في حروف المعاني

(ب) العدول الرتبي (التقديم والتأخير الرتبي) .

(ج) العدول المعنوي (التقديم والتأخير المعنوي) .

(د) العدول الضمائري (أسلوب الالتفات) .

وقد عرض البحث لأمثلة كل نوع من هذه الأنواع ، وحلل نماذجه تحليلا بلاغيا أسلوبيا يكشف عن القيمة الفنية للعدول في تلك الأمثلة.

---

[1] – أستاذ البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن المساعد – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

The abstract of thesis

Rhetorical position of the Devation

studying in Holy Koran

BY

D.ABD ELHAMIED AHMED YOUSSEF HENDAWY

The thesis is divided into a preface, an introduction, four chapters and conclusion.

A preface is considered of the study of the word's form, and its great sharply in the development of rhetorical studying in Holy Koran

An introduction is focused on "word's form" it's boundary and meaning to qualify the frame of the thesis and its ground.

The first chapter is "The phonetical Devation

The second is "the vocal Devation

". The third is " morphological Devation in meaning of forms".

The Fourth is The grammatical Devation and it,s forms.

In all these parts the thesis focused on these foundation in the rhetorical heritage, and modern stylistic studies and supported these principles with applied representative and models which insists on these foundations.

The thesis is inclouded "some of models of rhetorical analysis for word's form

The conclusion is deltas with the main results of the thesis have been described.